ما زلتُ أعشقها

الكتاب: ما زلتُ أعشقها
المؤلف: د. تهاني محمد
التصنيف: رواية
الطبعة: الثالثة
تصميم الغلاف: د. مهند الحيالي
التنسيق الداخلي للكتاب: مؤسسة أبجد
ISBN: 978- 9922- 696- 17- 1

أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
Ebjed for Translation, Publishing & Distribution

الطبعة الثالثة
2023
مؤسسة أبجد للترجمة والنشر والتوزيع
العراق – محافظة بابل – الحلة – شارع أربعين
جوال: 009647831010190
info@ebjed.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الانترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

ما زلتُ أعشقها

د. تهاني محمد

رواية

مدخل

دومًا سيظلُ هناك شخص في حياتنا لا تسري عليه قوانين الحياة..
شئنا أم أبينا..
نسامحه رغم الألم.. نحبه رغم العذاب.
سواء أكان غادرًا أم خائنًا أم كاذبًا... لن نفكر يومًا بالانتقام منه أو أن نذيقه من نفس الكأس التي أذاقنا منها
سيبقى دومًا سرًا يعذبنا...
لا نجرؤ على البوح به.

تهاني

إهداء

إلى كل قلب أذاقته الحياة لظى حب أحادي الطرف..
إلى ضحايا الحب والخيانة والحرب في بلدي...
إلى عراق مقطع الأوصال...
وإليك أنت...
أنت يا من كان بيني وبينه مد وجزر لقاء وفراق حياة وحياة أخرى تشبه الموت...

(1)

(حبٌ على ضفاف دجلة)

تعودت سمراء أن ترفع رأسها بشموخ وهي تسير مختالة بشعرها الأسود اللامع ووجهها ذو الملامح الشرقية المغرية، كانت جميلة مغرورة، فنظرة واحدة من عينيها العسليتين تستطيع أن تأسر بها شباب الحي جميعهم.

شفتان ممتلئتان مكتنزتان كأنهما حبتا ياقوت، كانت تتعمد أن تغرقهما بأحمر الشفاه الغامق بلون الياقوت أو الفراولة الطازجة، وجهها بيضاوي تضيء فيه عينيها الواسعتين بلون العسل برموش سوداء طويلة.

تسير كل صباح في نفس الطريق المؤدي إلى المدرسة الثانوية للبنات الواقعة في منطقة (الأعظمية)، تلك المنطقة التي تتربع على ضفاف نهر دجلة، النهر العذب الذي تمتد على مقربة منه أجمل القصور لأغنياء بغداد في الماضي القريب، كل تلك المنازل الرائعة لها شرفات واسعة وعالية تستقبل نسيم نهر دجلة صباحاً ومساء. كانت سمراء تبحر بخيالها بعيدًا وهي تتأمل تلك القصور العالية فتتخيل نفسها

وهي ممسكة بكوب الشاي في الصباح تقف في شرفة منزلها المطل على ذلك النهر العذب، فترى زرقة مياهه وأسراب طيور النورس المحلقة، وقوارب الصيادين، وقوارب أخرى وجدت لنقل العابرين إلى الضفة المقابلة، وصوت فيروز يصدح عالياً من المذياع..

بغداد والشعراء والصور
ذهبُ الزمانِ وضوعهُ العطر
يا ألفَ ليلة.. يا مكملة الأعراس
يغسلُ وجهك القمرُ.

أو قد تخرج لتستنشق الهواء النقي مساءً فتشعر بنسيم النهر البارد يداعب وجهها ورائحته تتسلل إلى الذكريات القديمة الموغلة في التاريخ قبل أن تولد حتى، فتتخيل إنها في زمن قصص ألف ليلة وليلة.
أو إلى الماضي القريب جداً فتتذكر أنَّ بلقيس تلك المرأة الرائعة حبيبة أكثر الشعراء رومانسية وحباً (نزار قباني)، كانت تسكن هنا في أحد تلك المنازل المطلة على ضفاف دجلة، فقد سمعت سمراء بقصة الحب الأسطورية تلك من بعض

التلميذات اللواتي يسكنَّ قريباً من هنا، حيث لا زالت قصة نزار وبلقيس تتناقلها النسوة حين يمر اسم نزار في ذاكرتهن.
فما أن زار نزار قباني بغداد حتى تعلق قلبه بنخلة من نخلاتها الشامخة، وصار قلبه معلقاً بدجلة وببلقيس.
أي سحر فيكِ يا بغداد... لتتعلق بكِ القلوب هكذا.
أفاقت من رحلتها البعيدة تلك على صوت مزامير وأبواق السيارات لتنبهها أنَّ الإشارة المرورية خضراء ولا يمكن لها العبور الآن فتراجعت خطوات إلى الخلف وهي تهمس لنفسها:
انتبهي أيتها الغبية، فبسبب أحلام اليقظة تلك كدتِ تُدهسين وتموتين الآن.
واصلت سمراء طريقها بعد أن نظرت في مرآة صغيرة كانت تحملها في حقيبتها المدرسية ثم أصلحت من الزينة الخفيفة التي وضعتها على عجل صباحاً من أحمر الشفاه وحمرة الخد قبل خروجها من المنزل، ولم تنسَ قطعاً أن تضع الكحل الأسود على جفنيها فتصبح نظراتها كسيف بتار لا يرحم.
بالطبع كان ذلك مخالفاً لقانون المدرسة الصارم، فلم تكن المدرسات في المدرسة الثانوية للبنات يسمحنَّ للطالبات بوضع الزينة والمساحيق، على الرغم من أنهنَّ يضعنَّ تلك

الزينة ويلبسنَّ القلائد والأساور وكأنهنَّ في عرض أزياء أو حفلة تنكرية، لا أعلم أي تناقض هذا!

فأما أن يطبق الزهد والنظام ويكون جميع من في مدرسة البنات من طالبات ومدرسات بوجه واحد خالٍ من المساحيق، وأما أن تفرد الحرية الشخصية جناحيها وكل امرئ يحمل ثقله على كاهله، ففي النهاية لتلك الطالبات أمهات وآباء وبيوت خرجن منها وسيعدن إليها ظهراً بعد انتهاء اليوم الدراسي.

غالبا ما كانت سمراء تتعرض للتوبيخ من مدرساتها هي وغيرها من الفتيات اللواتي يضعن الزينة الخفيفة، لكنها لم تكن تُعير لذلك أي اهتمام، فالتجاهل والعناد وتقديم مصلحتها الخاصة كانت من أهم صفاتها، فحتى زوجة خالها التي ربتها كابنة لها لم تكن سمراء تستجيب لنداءاتها المستمرة للمساعدة في ترتيب البيت أو التركيز في الدراسة وغيرها من الأوامر التي تعطيها الأمهات لبناتهنَّ خاصة وإنَّ تلك المرأة المسكينة كانت تشعر أنَّ سمراء إحدى بناتها ولم يبدر منها يومًا أي تصرف يبين عكس ذلك.

كانت تسير تلك الفتاة المغرورة كل يوم عند الصباح وحيدة في طريق المدرسة الثانوية كغزال شارد من صياده تسارع الخطى وتسابق الريح فلم يكن لديها سوى خمس دقائق كي تصل للمدرسة، فهي تغط في نوم عميق حتى الساعة السابعة والنصف صباحًا ثم تنهض متكاسلة منزعجة من اضطرارها للذهاب وقضاء يوم دراسي طويل، كانت تقضيه في الشغب والضحك والكلام داخل وخارج الصف المدرسي حتى ينقضي اليوم، وفي طريق الرجوع تكون بصحبة مجموعة من الفتيات تتوسطهن ويتعالى صوت ضحكاتها من بين الجميع، محاولة لفت نظر الشباب في الشارع كي تبرهن لمن يرافقنها إنها الجميلة الوحيدة بينهن والتي تذوب لها القلوب شوقًا.

وقد كان الزيّ المدرسي لطالبات المدرسة يعتبر نعمة كبيرة لسمراء أو أي بنت أخرى في مثل حالها، فهي فتاة يتيمة الأب والأم تسكن في بيت خالها الذي قام بتربيتها مع أولاده وبناته، وقد كان الرجل يعيل تلك الأسرة بأكملها براتبه التقاعدي البسيط.

فكان الزي المدرسي الموحد المؤلف من قميص أبيض وصدرية زرقاء يخفي فقر سمراء وغيرها من بنات المدرسة.

وقد ساعدها جمالها في إخفاء الفقر والحاجة اللذان يظهرا كوضوح الشمس حينما كانت ترتدي الملابس الاعتيادية عند

ذهابها لزيارة الصديقات، فكان من يصادف تلك الحسناء في طريقه يذهل بجمال عينيها وينسى النظر إلى ثيابها الرثة.
لكن سمراء لم تنسَ حبها للمال والغنى يوماً، وحلم حياتها بالزواج من رجل غني، فأول وآخر ما كانت تتفحصه في العريس المتقدم لها في طابور عرسانها الذي لا ينتهي كان جيبه الممتلئ ووسامته ونوع السيارة التي يركبها. فإذا ما عرفت أنَّ جيبه فارغاً أو أنه لا يمتلك سيارة خاصة به فلا تتأخر لحظة واحدة في شطبه من القائمة.
كانت مشاعرها تنحصر في نوع السيارة التي ستركبها وأسماء المطاعم التي سترتادها والحفلات التي ستحضرها مع الزوج المنشود. وكم من البلاد ستسافر إليها برحلات السياحة والاستجمام، فهذا هو الزواج في نظرها وهذا ما يجب أن تحلم به فتاة حظيت بالجمال الملفت. لكنها كانت تحتفظ لنفسها بسرٍ لم تُخبر به أحد بعد؛ لأنها تريد أن تتأكد من أنَّ العصفور قد أوشك على الوقوع في الشباك. ذلك العصفور الجميل كان (سامي).
شاب يسكن بيتاً كبيراً من طابقين على ضفاف نهر دجلة الرائعة، قرب مدرسة البنات، يخرج كل صباح بسيارته الأمريكية الحديثة متجهاً نحو جامعته.

لاحظت سمراء أنَّ سامي يوليها اهتماماً خاصاً من بين فتيات المدرسة اللواتي يسرن في جماعات في طريقهن كل صباح منشغلات بالكلام والضحك. وفي قرارة نفسها كانت متأكدة إنها أجملهنَّ وجهاً وأرشقهن جسماً؛ لذا كان الغرور يركبها من رأسها حتى أخمص قدميها، وأحست أنَّ سامي لابد أن يكون من نصيبها. ومن غيرها يستحق شاب غنياً ووسيماً مثله؟ مرت الأيام وتحولت نظرات سامي وسمراء المتبادلة بسرعة كل صباح إلى علاقة حب عارمة.

غرق الشاب في عسل عيني سمراء وحلقت هي بغرورها عالياً بعد أن حققت حلمها وأصبحت السندريلا التي عشقها الأمير.

ثلاث سنوات وهما على هذه الحال، نظرات صباحية يومية سريعة ومكالمات هاتفية كل يوم لمدة ساعات، وبعض اللقاءات المتباعدة في الحدائق العامة. كانت لا تزال سمراء في الثامنة عشر من عمرها حين تخرج سامي من جامعته وحاول أن يفاتح والده برغبته في الزواج منها. وبسبب الفارق المعيشي والديني بين أسرة سامي وأسرة سمراء، وهذا ليس بغريب على المجتمع العراقي المكون من خليط السنة والشيعة والديانات الأخرى، رفض والد سامي فكرة الزواج وارتباط ولده بتلك الفتاة.

فكم من قصص الحب اغتالها تعدد المذاهب واختلاف الطوائف، كم من مسلم عشق فتاة من الديانة المسيحية أو العكس، وكم من مسلم ومسلمة حكم المجتمع على حبهم بالإعدام بسبب كونهما من مذهبين مختلفين. تلك المفاهيم المغلوطة كانت كبذرة مسمومة في جسد المجتمع العراقي ما لبثت أن استفحلت وكبرت فيما بعد لتصبح شجرة تنفث السم في أوصال البلاد، فصار الأخوة أعداء والأصدقاء غرباء.

وعلى الرغم من كون سمراء من أسرة مسلمة لكن اختلاف المذهب والطائفة التي تنتمي إليها بالوراثة عن طائفة عائلة سامي أعطى مبرر كافٍ لوالد سامي بأن يرفض هذا الزواج الذي كان له سبب آخر مهماً للرفض، وهو الفقر الذي تعيش فيه عائلة سمراء، وبما أنَّ والد سامي كان يعشق الارتباط بالأغنياء كما كانت تعشق ذلك سمراء، فقد كان له موقفاً صارماً إزاء هذا الزواج.

لكن ألا يشبه الولد أباه؟

كان يقابل الرفض القاطع من والد سامي والإصرار الحديدي إصراراً حديدياً آخراً من قبل سامي على الارتباط بسمراء، فقد غرق برمال حبها المتحركة حتى أبطيه ولم يعد قادراً على الخلاص أو النجاة من هذا الحب الذي راح يبتلعه كما

تبتلع الرمال المتحركة في صحراء الربع الخالي الجمال والعابرين الذين راحوا يعبرون الصحراء دون دليل يرافقهم للعبور ويحذرهم من أماكن الخطر في أرض لم تطئوها أقدامهم من قبل. فعندما نقع في الحب لا ننظر إلى المساوئ أو الحسنات... وقد لا نستطيع الرؤية مطلقًا. نحن نعشق فحسب، لا ندري لماذا ولا متى حصل ذلك.

فأول الغيث قطرة، نحن نستطيع أن نشعر أنَّ خطر الحب بدأ يداهمنا، عند التقاء أول نظرة ستعرف أنَّ هناك فخاً أبدي على وشك الوقوع فيه. هنا في هذه اللحظة فقط يمكنك الهرب.

فعند حدوث شرخ صغير في السد، قد يتطلب الأمر وقتاً طويلاً وضغطاً كبيراً من المياه كي يتصدع السد ويتسرب الماء.

أهرب قبل أن يتصدع السد... قبل أن يصبح حبك طوفاناً.. يجرف كل شيء في طريقه. تستطيع الهروب بعد أول نظرة، يمكنك النجاة من الحب هنا فقط. لكن كن يقظًا لما سيحدث لك... لأنك بعد أول لقاء... وأول نظرة لعيني من تحب

ستشعر إنك كالمدمن... تريد المزيد من الجرعات كي تشعر بالسعادة... تريد المزيد من حلاوة النظرات المتبادلة أو

المسروقة خلسة. ستسري في جسدك بعد أول نظرة رعشة الوقوع في الإدمان. إدمان السعادة... اللذة.
تريد أن تتحسس المزيد من ذلك الشعور الغريب الذي يسري كالمخدر في دمك، أو قد تكون كمن أدمن شرب القهوة الصباحية، فلا يستطيع أن يستقبل يومه الجديد دون أن يشم رائحتها ويُمتّع نظره بروعة لونها، ويشعر أنَّ مرارتها تجعله أقوى؛ لأنها تذكره بمرارة ليالي البعد والاشتياق التي تمزق القلب قطعاً صغيرة لتعيد ترتيبه مرة أخرى كأنه لعبة من العاب تركيب الصور. فهي تجعلك تسهر الليالي لتجد القطع المفقودة، وعند اكتمال الصورة تشعر بفرحة عارمة بحلاوة الانتصار.
وسيغريكَ عقلكَ بالحماقات، فيقول لكَ لن يحدث شيء، إنكَ قوي ولا يوجد ما يسمى حبًا من أول نظرة أو أول لقاء... إنها محض خرافات.
لا تصدقهُ... لا تصدق عقلك
اهرب الآن.... فلا مزيد من الفرص بعدها.
لا تكن كالفراشة التي تحوم حول النار مأخوذة بجمال لمعانها وألوانها الزاهية؛
لأنك ستحترق وأنتَ تدور غير مبالٍ محلقًا حول ألسنة اللهب.. ستجذبك حلاوة الأشواق وحرارة نارها.

ستفقد إحساسك بالخطر.. وهذا أول ما يفعله بكَ الحب.. انعدام الإحساس بالمخاطر.
وستشعر أنَّ الكون كله مظلم، إلا تلك البقعة التي فيها بريقٌ من تحب.
ستضيء لكَ أرض حبيبكَ من بعيد كأنها القمر ليلة اكتماله.
ستتجمع كل جاذبية الأرض في مكانٍ واحد.. لتجركَ بقوة.. إلى عينيّ من تحب، إلى عطره، صوته، آثار أقدامه التي خطت على الرمال.
سيتلاشى جميع الناس أمام ناظريكَ.. لن تعود ترى أحدًا سواه.
هل تريد أن تحرق جناحيكَ كتلك الفراشة الساذجة؟ أتراها سعيدة باحتراقها في لهب تلك النار التي أغرتها كما نسعد بنار أشواقنا المتأججة؟
لكن قد نكون نحن من يبحث عن الحب.. عن الجنون.. ولا نشعر بلذة الحياة إلا بإحراق جناحينا!
وهذا ما كان يبحث عنه سامي.. الحب.. بجنونه.. بروعته.. بحلاوته ومرارته.
ولم يجد المسكين ذلك الحب الكبير إلا في عيني سمراء... سمراء التي أحبت وسامته وفخامة، مركبته الحديثة ورصيد عائلته في البنوك.

(2)

(الانطوائية)

كانت عينا جمانة ترقب سمراء وهي تتمايل فرحًا في باحة دارهم الصغيرة المنخفضة مرتدية خاتم الخطوبة الذهبي وتُثقل معصميها الأساور اللامعة.

ترقبها بعيني الفضول، ذلك الفضول الذي تنظر به إلى كل ما يحيطها في الحياة.

لم تكن ثرثارة كابنة عمتها سمراء، بل كانت تعشق الصمت والتأمل، تحاول أن تحلل كل شاردة وواردة في عالمها الصغير.

كانت سمراء تتبختر في باحة الدار أمام جمانة وهي تثرثر من شدة الفرح:

- آه.. أشعر أنني أحلقُ عاليًا. أتمنى أن أحتضن حبيبي سامي الآن... آه يا سامي.. أخيرًا استطعت أن تفرضَ زواجنا على والديكَ وتثبت لي كم تحبني.

سألتها جمانة:

- وأنتِ يا سمراء، هل تحبينه بالفعل؟
- وكيف لشاب مثله أن لا يكون محبوبًا! هل رأيتِ وسامته؟ هل تمعنتِ بسيارته الحديثة؟ ألا ترين الهدايا التي اشتراها لي؟
- لو افترضنا أنه كان شابًا فقيرًا يا سمراء، لكنه يحبك.. هل ستحبينه هكذا كما أنتِ الآن؟
- ولماذا أفترض تلك الافتراضات المزعجة... ما بكِ يا جمانة؟ آه نسيت أنكِ حالمة ومثالية و...
- وساذجة، أليس هذا ما أردتِ قوله؟
- وهل هناك أكثر سذاجة منكِ أيتها الطفلة؟ ما يجب أن تفهميه في هذه الحياة هو أنَّ المتعة هي كل غايتنا منها. كل ما نريده من الحياة هو المتعة، فكيف لكِ أن تستمتعي بحياتكِ وأنتِ ترتبطين برجلٍ فقير أو لا يملك جمالًا أو وسامة؟ هل ستقضين حياتكِ معه وأنتِ تأكلين الخبز والجبن كأنكِ فأرة؟ وتنجبين أطفالًا قبيحي الشكل ليموتوا جوعًا، ويقضون حياتهم يرتدون الأسمال والثياب الرثة مثلنا يا جمانة؟ ألا يكفينا ما عانيناهُ نحن؟ نتناوب على نفس الفستان أنا وأخواتكِ، ونشعرُ بالخجل من نظرات الصديقات لكثرة تكرار نفس الملابس التي ارتديناها في كل

مناسبة. قد عشت ثمانية عشر عامًا من عمري وأنا في فقر وجوع، لم أدخل يومًا مطعمًا راقيًا لأتناول فيه وجبة، لم أذهب يومًا إلى حفل راقص كالذي تحدثني عنه صديقاتي في المدرسة، لم أرَ الدنيا، لم أبرح مكاني، لم أسافر، إلى متى سنبقى هكذا يا جمانة، نعيش كالصراصير في البالوعة؟ زواجي من سامي هي فرصتي لأعيش.. لأرى الحياة كما يجب أن أراها وأعيشها. فأنا وأنتِ وأخواتكِ يا جمانة لا نمتلك سوى الجمال الذي يشد الرجال إلينا ليأتوا ويطرقوا باب بيتنا الحديدي الذي أكله الصدأ وانحنت جدرانه إلى الأمام وقد تسقط في أي لحظة من شدة الرطوبة التي نخرت بنيانه. حاولي أن تفهمي ما نحن فيه أيتها الصغيرة، إننا من أسرة فقيرة لا نمتلك جاهًا أو وجاهة اجتماعية أو شيئًا يميّزنا، والرجال يبحثون عن فتاة غنية أو من عائلة ذات مكانة مرموقة وعلاقات بشخصيات مهمة أو فتاة جميلة ليتزوجوا بها. ونحن لا نمتلك سوى الجمال، إنه سلاحنا كي نحارب وننتزع من الحياة زوجًا يخلصنا من هذا المنزل المتعفن.

- لا أفهم أفكارك أنا يا سمراء. فأنا أشعر أنَّ معنى الزواج هو أن تُعطي الفتاة قلبها للرجل الذي ستتزوج به قبل أن تعطيه جسدها، إنهما روحين يتحدان بالحب والوفاء وصفاء النية. كيف يمكن لكِ أن تخدعي شخصًا أحبّكِ بكل صدق، وتوهميه أنكِ تبادلينه الحب، بينما تتخذينه أنتِ سُلمًا للنجاة من الفقر، ألا يعتبر هذا خداعًا؟
- خداعًا؟ أيُّ خداع هذا الذي تتكلمين عنه؟ الحياة صفقة أيتها الغبية.. إنه يحبني ويريد أن يمتلكني ولا بُدَّ له أن يدفع ثمن موافقتي على هذا الامتلاك. والثمن هو أن يسعدني.. أن يغدق عليَّ الأموال والهدايا.. أن ينتشلني من هذا البيت الذي لا يحوي سوى غرفتين رطبتين مظلمتين ننام فيهما كلنا مصطفين على الأرض كل ليلة كأننا جنود في معسكر. وفي الصباح ننهض مرعوبين كي نقوم بطي أغطيتنا والفرش التي نمنا عليها ليلاً قبل أن يطرق أحدهم باب البيت، فيشاهدنا نيامًا في غرفة المعيشة ملتحفين بأغطيتنا المهترئة القذرة. أنا أكره هذا البيت يا جمانة، أنظري إلى حالنا.. إلى الحمام المخيف الذي نستحمّ فيه.. إلى المطبخ الذي لا نعرف لون

جدرانه من شدة السواد. فنحن لا نتذوق الحلوى إلا في الأعياد عندما يقوم الجيران بتوزيعها على المنازل في الحي ثوابًا لموتاهم، والدكِ المسكين يتبخر راتبه أول يومين من الشهر ونقضي بقية الشهر نستدين الخضراوات والخبز من البقال كي نملأ معدتنا الخاوية إلى الربع فقط. أي خداعٍ هذا يا صاحبة الخطب والمبادئ؟ أنتِ لم تدخلي بيوت الأغنياء، إنها تشبه تلك التي نشاهدها في الأفلام. لو رأيتِ بيت عائلة سامي.. إنه منزل كبير ورائع، فيه غرف كثيرة مضيئة وواسعة، وصالة الجلوس كأنها قاعة للاحتفال والأعراس.. بأثاثها الملكي المذهب وتلك الطاولة الكبيرة التي تحيطها ثمانية مقاعد ملكية. كلما دخلت إلى منزلهم أشاهد ألوان الطعام على تلك الطاولة، طبق كبير من الفاكهة بكل أنواعها وأطباق الحلوى والدجاج المشوي.

- إننا نعاني يا جمانة.. فنحن لا نتذوق طعم اللحم إلا مرتين في السنة.
- ماذا سأقول لكِ يا سمراء.. أتمنى أن تسعدي بحياتكِ الجديدة. لكن حاولي أن تعطي الكثير من الحب لذلك القلب الذي أحبكِ وفضّلكِ على الكثيرات،

فكري به قبل أن تفكري بأمواله.. إنَّ سامي شاب طيب.

- إليكِ عني.. تنصحينني وكأنكِ أكبر مني سنًا وتفهمين أكثر مني. سأذهب لأستعد وأجهز نفسي فأنا على موعد مع سامي، سيصطحبني إلى مطعم في فندق راق جدًا لتتناول العشاء.

كان منزل عائلة سامي يقع على ضفاف دجلة بين تلك القصور العالية للأغنياء من سكنة مدينة الأعظمية، تلك المدينة التي تربض شمال بغداد على الجانب الشرقي لنهر دجلة، وقد اشتقت تسميتها من مسجد ومرقد الإمام أبي حنيفة النعمان الموجود فيها، وهي من أقدم مدن بغداد يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والأكراد منذ زمن بعيد، وفيها أقدم الجسور العائمة الذي يربطها بمدينة الكاظمية حيث ذكر الشاعر علي بن الجهم ذلك الجسر في قصيدة غزل قالها في فتاة أحبها فقال:

عيون المها بين الرصافة والجسر
جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري
أعدن لي الشوق القديم ولم أكن

سـلوت، ولكن زدن جمرًا على جـمر

كانت تلك المدينة قديمًا عبارة عن بساتين خضراء تعانق ضفاف دجلة، وفيها بنى بعض الخلفاء العباسيين قصورهم كالقصر العباسي وقصر أم هانئ ابنة هارون الرشيد.
تربض في مدينة الأعظمية المقبرة الملكية وهي من أهم معالمها، فقد دُفنت رفات العائلة المالكة العراقية فيها وقبر الملك علي بن الحسين ملك الحجاز، وبعض من أخوة وأقارب الملوك.
وعلى الرغم من أنَّ أغلب سكانها من الطبقة المتوسطة أو من الطبقة الفقيرة والتي تكون منازلهم عبارة عن منزل من طابق واحد مكون من غرف عديدة تحيط بباحة داخلية تسمى (الحوش) الذي يجلس فيه أهل المنزل صباحًا أو عصرًا لشرب الشاي وتنفس بعض الهواء المنعش الذي يهب عليهم من نهر دجلة القريب، إلا أنَّ أغنياءها يمتلكون بيوت كبيرة كالقصور على ضفاف دجلة المسمى الكورنيش وهو رئة بغداد التي تتنفس منها نسيمًا طيبًا.
وصل سامي بسيارته السوداء الطويلة في الساعة السابعة مساءً، ركنَ السيارة بلياقة مبالغ فيها أمام الباب الصدأ لمنزل عائلة سمراء، أطفأ المحرك وترجل منها بخفة ورشاقة، طرق

باب البيت بطرقات ثلاث، وقبل أن يهم أحدهم بفتح الباب له كانت النسوة في الحي قد أخرجن رؤوسهن من النوافذ كي يتأملنَّ العريس الوسيم والغني الذي اصطادته تلك الفتاة اليتيمة المغرورة التي تعيش في بيت خالها.

فتحت سمراء الباب ودعته للدخول، والجلوس لدقائق قليلة ريثما تكمل زينتها كي تصبح جاهزة للسهرة.

جلس سامي على الأريكة الصغيرة في غرفة المعيشة في بيت خطيبته، تلك الأريكة التي تحول لونها بفعل الزمن إلى لون كالح لا يمكن أن نصنفه على أي لائحة من الألوان فهو ينتمي إلى لون التراب والفقر.

قدمت جمانة له الشاي وجلست هي ووالدتها على كرسيين مقابلين للأريكة الوحيدة التي يجلس عليها سامي، بانتظار أن تمر الدقائق التي كانت طويلة على الجميع بسبب الحرج الشديد الذي يشعرن به.

فسوء حال المنزل، وقدح الشاي الذي لا يملكن سواه ليقدمنه للضيف عند زيارته للمنزل جعل من الدقائق ساعات طويلة.

أنقذهنَّ منها حضور سمراء مكتملة الزينة تعلن عن استعدادها للخروج والتمتع بسهرة جميلة برفقة الخطيب الوسيم والسيارة الفارهة.

خرجا معًا من باب البيت حيث لا زالت رؤوس نساء الحي هناك وأعينهن تترقب عبر النوافذ والفتحات، كان سامي طويل القامة رشيق الجسم، لونه يميل للسمرة ويعلو شفته الممتلئة شارب أسود، نظرات عينيه تتسم بالذكاء والفطنة.

أمسك بيد سمراء وسارا معًا نحو سيارتهما، كان كل واحد منهما يشعر أنه يمسك بكأس المسابقة التي قاتل من أجلها وفاز بها.

سامي يشعر أنه حقق حلم حياته المنشود بزواجه من فتاة رائعة الجمال بعد قصة حب طويلة وهذا من وجهة نظره هو الفوز بعينه، أما سمراء فقصة فوزها معروفة الأسباب، تلك الأسباب التي يجهلها خطيبها الوسيم بالطبع.

جمانة فتاة ناعمة جميلة المحيا، تشعر حين تنظر إليها أنكَ ترى أميرة أو ملكة تسير بكبرياء وعزة واثقة متكبرة، لكن لم يكن هذا المظهر هو حقيقة جمانة بالفعل، فالثقة المبالغ فيها والتكبر المأخوذ عليها لم يكن سوى (رهاب اجتماعي) وخجل من الناس، فتاة في الثانية عشر من عمرها تعيش في عزلة وصمت وسط أخوات وأخوة يتسمون بالطيش والصخب والأنانية، كانت عزلتها هي عالمها الحالم وسكينتها، وغالبًا ما كانت سمراء تثرثر لها عن المدرسة والصديقات والخطيب الثري والأحلام التي تتمنى تحقيقها،

كانت سمراء تحب أن تثرثر وتحكي لابنة عمتها، ليس حبًا فيها بالتأكيد فسمراء لا تعرف أن تحب أحد غير نفسها، لكن كانت لجمانة شخصية جميلة هادئة، تستمع لمن يتحدث إليها بكل وقار وقد تعقّب على الحديث ببعض التعليقات والنصائح إن شعرت بضرورة قولها.

لم تكن تعرف الشعور بالغيرة كما تعرفه أكثر الفتيات، فهي تمتلك قلبًا صافيًا محبًا للجميع، لذا كانت تعتبرها سمراء فتاة ساذجة لا تفهم من الحياة شيئًا؛ لأن لكل منهما فلسفة خاصة ولغة لا تشبه الأخرى.

فسمراء تحب المظاهر البراقة والتباهي بالقشور والتفاهات، أما جمانة فلم تكن تُعير للمظاهر الخادعة أيّ اهتمام، وهذا عينه ما كان يثير غيرة سمراء منها، فهي تراها فتاة ذكية واثقة من نفسها، لا تحمل كرهًا أو حقدًا على أحد وعدم اهتمامها بالتفاهات كان يثير حفيظة سمراء ويجعلها تشعر بأنَّ جمانة أفضل منها وأكثر رقيًا ووعيًا.

حدث الزفاف وارتبطت الأسرتين بزواج سامي وسمراء على الرغم من الكره الواضح الذي يكنّه والد سامي لسمراء، فحتى بعد أن تعرّف عليها وأصبحت زوجة لولده لم ترق له يومًا، وكان لغرورها وثرثرتها ولسانها السليط أسبابًا إضافية كي يشعر أنه كان على حق عندما كان رافضًا لهذا الزواج

وناصحًا لولده الذي لم يقبل النصح بعد أن أصبح عاشقًا مسلوب العقل لا سيما أنه ورث العناد والقوة عن أبيه.

(3)

لا تذكر جمانة متى رأت ذلك الفتى برفقة عائلة سامي أو كم مرة شاهدته في بيتهم، حتى أنها لم تذكر أنه تكلم أو نطق يومًا.. كانت تراه أما داخلًا للبيت أو خارجًا منه عندما تكون برفقة عائلتها في زيارتهم إلى بيت والد سامي.

إذن فهو انطوائي آخر...

قالت سمراء تلك الجملة لجمانة مقهقهة وهي تراها تتبع (نبراس) بعينين ملؤهما الشوق واللهفة.

- ماذا تعنين؟ ولماذا توجهين كلامكِ لي.. وما تلك الابتسامة الخبيثة على وجهكِ يا سمراء؟
- هههههههههه إنه نبراس، هو أخو زوجي سامي، إنه انطوائي مثلكِ ولا يتكلم سوى كلمتين أو ثلاث كلماتٍ، منعزل في عالم خاص به. عالمه هو الموسيقى. إنه عازف كيتار رائع، هل تعلمين يا جمانة إنه بنفس عمركِ تمامًا، لكن ألا ترين إنه أكثر وسامة من سامي؟ انطوائي وانطوائية هههههههه يا لجمالكما معًا!

(4)

(عازف الكيتار)

خيالي حالم.. شبق عنيد.. يعشق النساء والموسيقى... ذو ذكاء حاد وكبرياء مزعج.

هذا ما كان عليه نبراس. كانت الموسيقى هوسهُ وحبهُ، لكنه رغم ذلك ظل مثابرًا في دراسته حتى اختار الدخول إلى كلية الفنون لدراسة الموسيقى.

لم يكن عاشقًا للموسيقى فحسب، بل كانت له فلسفته الخاصة.

كان يقول إن للموسيقى تأثيرًا على حياتنا، فهي تساعد الأطفال على النوم والنباتات على النمو وتريح المرضى، وتؤثر على الجنود في الجبهات، فهي أما أن تجعلهم على استعداد لخوض المعركة أو البقاء في الثكنات متكاسلين مشتتي العزيمة.

كان يعتبر الموسيقى كفنجان قهوة الصباح تؤثر على مجرى حياتنا اليومية، فحياتنا لحنًا موسيقيًا نستمتع به في كل لحظة من لحظات العمر.

ويخبر أصدقاءه أن يتحسسوا الحياة من خلال الموسيقى، فيقول لهم حاولوا أن تتعلموا فن الإصغاء، فليس صعبًا على أي إنسان أن يُنمّي قدرته على الإصغاء.

فكل ما عليه هو أن يقوم بتمارين تعلم فن الإصغاء، بأن ينتقي مقطوعات وفقًا لتعبيرها عن أحد العناصر المكونة للكون، فالكون كما يعتقد بعضهم مُؤلَف من أربعة عناصر هي: التراب والماء والنار والهواء، ولكل عنصر ميزته وخاصيته وتأثيره على حياتنا وسلوكنا؛ لهذا كان النقاد والموسيقيون السابقون يعتبرون براهامز وبتهوفن خير من يُعبر عن العنصر الترابي، أما موسيقى ديبوسي ورافيل فهي تنساب وتترقرق كالمياه، ويتمثل العنصر الناري في موسيقى سترافنسكي وشوستاكوفيتش، وكما للهواء تقلبات فمرة يهدأ وحينًا يهب عاصفًا كذلك هي موسيقى موزارت وباخ.

نبراس شديد الشبه بأبيه قلبًا وقالبًا... ولعهُ بالنساء.. حبه للحياة... صمته.. همته في العمل... كبرياءه وقسوة قلبه.

لكن كيف لشخص عاشق للموسيقى أن يكون متكبرًا قاسي القلب، هذا سر لا يفهمه أحد، فهذه الحياة تملك من المتناقضات ما لا حد له أبدًا.

وسامته الواضحة كانت تعمل كمغناطيس يجذب الفتيات إليه، بشرة بيضاء تشوبها حمرة على الخدين وشعر بني لامع، كتفان عريضان وصدر واسع وعضلات منتفخة مفتولة أضافت لقوامه المتناسق منظرًا رجوليًا مغريًا.

لم يتحرش يومًا بواحدة، ولم يجرِ خلف فتاة وهذا عينه ما يثير هوس النساء بالرجال، فحين ترى المرأة رجلًا وسيمًا كيّسًا يرمقها بنظرات عابرة ويواصل طريقه كأنَّ شيئًا لم يكن يجنُّ جنونها وتحاول أن تفهم اللغز.

لهذا كانت تأتيه الفتيات على طبق من ذهب، فبمجرد أن يرمي الطُعم بنظراته وابتسامته ويمضي في طريقه غير مبالٍ تبدأ البنت المسكينة بالجري خلف هذا الوسيم المتكبر الذي وقعت في شباك صيده، فيبدأ هو بقليل من المناورات الرجالية لسحب خيط الصنارة بهدوء، ثم يصطاد سمكته التي أحبت هي أن تقع في الشباك بإرادتها.

كانت علاقات نبراس الغرامية العابرة والكثيرة تسير بهذه الطريقة، فهو في الحقيقة لم يكن انطوائيًا أبدًا كما وصفته زوجة أخيه سمراء، لكنه كان قليل الكلام هادئ الطباع

خجولًا راقيًا. وعلى الرغم من أنه قد حاز على مجموع يدخله جامعة علمية، إلا أنه فضَّل أن يلتحق بكلية الفنون الجميلة قسم الموسيقى، فقد كان يشعر أنَّ العزف في حياته ليس هواية فقط بل يجب أن يكون عمل واحتراف.

خلال تلك السنوات كانت مشاكل سمراء مع عائلة سامي تزداد ضراوة، فهي طويلة اللسان شديدة الغيرة، فكانت تفتعل المشكلات وتثير الزوابع في البيت. فأصبحت الشخصية المزعجة والمثيرة للنزاعات في منزل كان هادئًا قبل دخولها فيه.

وعادة ما كان نبراس ينظر لزوجة أخيه بعين الاحتقار؛ لسوء أدبها مع والده وأسرته لكنه يبقى صامتًا لا يحاول التدخل في شؤون أخيه احترامًا له.

لكن كان هناك شخص في عائلة سمراء لطالما أثار انتباه نبراس وإعجابه.

إنها جمانة...

تلك الفتاة الرقيقة الناعمة، تلك العينان اللتان تخفيان خلف نظرات الخجل والارتباك لغزًا محيرًا، ولطالما أثار وجودها شيئًا ما بداخله.

كان يشدّه إليها جمالها الناعم وهدوءها وشخصيتها التي يراها متزنة فيشتهي أن يحادثها ويتعرف على تلك المنعزلة

المثيرة، لكنه كان يملك نفس كبريائها فلم يستطع أن يبدأ معها حديثًا يومًا.

وعلى الرغم من أنها قد شغلت تفكيره كثيرًا.. إلا أنَّ تلك الفقاعة العازلة التي كانت تحيط بها نفسها غالبًا ما كانت تمنعه من التقرب إليها.

لذا كان يكتفي بالابتسام لها من بعيد حين يراها، وقد كان لاجتهادها وتفوقها الدراسي ومظهرها البريء الذي لا يشبه مظهر باقي الفتيات في سنها أثر كبير في أن يكون لدى نبراس فكرة بأنها فتاة جدية تعشق الدرس ولا تعرف الحب.

وكبرياؤه وغروره المبالغ فيهما كانا يشكلان حاجزًا كبيرًا بينه وبين جمانة، فقد تعوّد هو أن تلاحقه الفتيات أينما ذهب وتتساقط القلوب من حوله وتذوب عشقًا لجماله ووسامته، لم ترفضه فتاة يومًا ولم يجرب يومًا بأن تقابله إحداهن باللامبالاة والبرود مثل ما كانت تقابله به جمانة، حين تلتقي نظراتهما مصادفة في أوقات متباعدة قد تمتد إلى خمس أو أربع سنوات بين كل لقاء وآخر.. كانت اللقاءات عائلية وسريعة جدًا.

من ناحيته كان يفسر هو تلك اللامبالاة بأنَّ تلك الفتاة لا تفهم بأمور الحب ولا تهتم فضلاً عن أنها لا تكن له أي مشاعر بالمرة. لذا كان يبعد عن تفكيره ذلك الشعور الغريب

الذي يشده لجمانة، لم يكن يعلم أنَّ تلك اللامبالية كان قلبها يحترق شوقًا للقائه، ويذوب وجدًا لمجرد أن يذكر أحدهم اسمه أمامها. لكن الحب يجذبنا رغمًا عنا... فلو شعر نبراس أنَّ ما يشده لجمانة قويًا جدًا لما استطاع إبعادها عن تفكيره، رغم أنه كان يتعمد أن يبقيها بعيدة؛ لخوفه من أن يقع في حبها بالفعل وتتكرر نفس مأساة أخيه بزواجه من سمراء وتلك المشاكل التي لا حد لها. لكن كل ذلك لا يعترف به منطق الحب. فالحب كالحرب لا فرار منها بعد ولوجها، ولو شعر أحد بشرارة الحب تقدح في قلبه فلن يطفئها شيء.

لابد أنَّ ما يشده إلى جمانة هو شيء آخر غير الحب، لم يكن يعرف ما هو لكن في أفضل الحالات قد يكون إعجابًا ورغبةً، هذا ما كان يحدِّث به نفسه عند محاولته تفسير ما يشعر به نحوها.

من النادر أن يقع رجلاً في الحب، ذلك الحب الذي يفقده سلطته وسيطرته على قلبه وهذا ما يكرهه أي رجل أن يفقد السيطرة على قلبه. أما ما يجذب الرجال إلى الكثير من النساء فهي تلك الرغبة التي لا تتعدى حدود الجسد. وربما أغلب الرجال قد خلقوا (بيولوجيا) هكذا، ينجذبون إلى الجسد ولا يقعون في الحب، يبدو أنَّ الحب لعنة خاصة بالنساء ليشقين طيلة حياتهنَّ بحب رجل واحد. فإذا بادلها الرجل الحب

وأصبح من نصيبها ستقضي تلك المسكينة عمرها بالخوف من بقية النساء وبالغيرة العمياء على ذلك الحبيب السعيد.
أما إذا أصابتها لعنة حب من طرف واحد ولم يبادلها الرجل الذي امتلأ قلبها بحبه فهنا أيضًا ستقضي المرأة بقية حياتها في زواج تقليدي بطعم الخضار المسلوق باهتًا عديم الطعم، وتبقى تندب ذكرى حبٍ لم تغدق عليها الدنيا منه سوى مرارة الأشواق والذكريات ولم تذق طعم السعادة التي يشعر بها من عاش قصة حب بأكملها.
قد يكون هناك قلة من الرجال من يصاب بلعنة الحب فيملك قلب يعشق امرأة واحدة وستبقى من يعشقها إلى الأبد هناك في مكان خفي من قلبه لن تخرج منه مهما حدث.
لكن ما يختلف به الرجال عن النساء في منطق الحب هو أنهم سواء تزوجوا من أحبوها أم لم يتزوجوا بها، فإنهم سيكملون حياتهم بشكل تلقائي وطبيعي مستعينين بتلك الصفة الفطرية البيولوجية التي خلقهم الله بها. فلن تتوقف لديهم الحياة، فالجميلات في كل مكان على هذه الأرض الواسعة، سيرغبون بالشقراء والسمراء والأعين الخضراء والسوداء وسيعيشون حلاوة القبلات بحب أو من غير حب.
لن يبكوا حبًا فاشلاً... بل سيخبئونه في قلوبهم ويغلقون الباب ويهال عليه التراب كي يرقد بسلام في قبره، ثم

يكملون حياتهم بهمة وعزيمة تعينهم حرارة الرغبة المشتعلة في أجسامهم وكبرياء الرجولة الذي لن يسمح لهم بأن تهزمهم امرأة.

(5)

(جمانة)

عندما تكون القلوب حالكة السواد لن تكون قادرة على أن تشعر بمن حولها. كانت جمانة تعيش بين وحوش بشرية يسمون بالأخوة والأخوات. الأنانية واحتقار بعضهم بعضًا هي السمة السائدة في البيت، ولم يكن لأمهم الضعيفة والمعدومة الثقافة والتعليم أي حول أو قوة في منع ظلم واعتداء أبنائها أحدهم على الآخر.

عائلتها تتكون من أختين تكبرانها بعدة سنوات واثنين من الأخوة الصبية، أما الأختان فيتمتعان بجمال الشكل وقبح الروح.. وهل يبقى للشكل من جمال إذا كانت الروح مشوهة!

وهل هناك أقسى من أن تعطيكَ الحياة أخوة يكونون ألد الأعداء لكَ بغيرتهم وغبائهم وتسلطهم...

كان البيت يشبه إعصارًا من النار ليس له عمر لينتهي أو يخمد... لا حب يربط القلوب القاسية ولا ورع يرد الشر

والكراهية... كل واحدة منهما تريد أن تكسر الأخرى وتمحيها..

وأما الشابان فكانا عاقين معدومي الضمير والتقوى.. يحملان كرهًا شيطانيًا لأخواتهم وعقوقًا لوالديهما.. أسرة تشبه في تفرقها البلدان العربية.. لم يتحدوا يومًا رغم انتمائهم إلى نفس الوطن ونفس الأرض والتراب.

قد يغفر الناس هفوات الشبان معللين أنَّ سبب ارتكاب الأخطاء تلك للحماسة والحرارة التي تتدفق في عروق الفتى وهو في مقتبل العمر، لكن لا بُدَّ أن يكون لبعض الأماكن حرمتها وقدسيتها مثل: البيت أو الجامعة أو ما شابه ذلك.

كان أخوا جمانة شابين فاسقين قد تعديا كل الحدود، فهما لم يكتفيا بعلاقاتهما العديدة مع الفتيات وإغوائهن، إنما امتد ذلك ليدوسا بأقدامهما القذرة حرمة منزل العائلة، وأن يحضرا الفتيات السيئات إلى المنزل في أوقات يخرج الأب فيها ولا يكون في البيت إلا الأم وبناتها.

تلك الأم التي تخشى أن تفتح فمها بكلمة واحدة ترفض فيها العار الذي يجري في بيتها، فقد كانت الأم من أصل ريفي وتم تربيتها على أنَّ الرجل هو سيدها سواء كان أخًا أم زوجًا أم ابنًا.

كان جد جمانة لأمها هو الذي تكفل بتربية ابنتيه، أي أم جمانة وأختها بعد أن توفيت زوجته بحمى أصابتها، وقد كانت أم جمانة لا تزال في الخامسة من عمرها، طفلة لا تعي شيئًا، وقد كان أبوها رجلًا ريفيًا قاسي الطباع غليظها، فراح يمارس أشد العقوبات بحق أم جمانة بسبب غضبه وانزعاجه من وفاة زوجته التي تركت له بنتين يثقلان كاهله بتربيتهن، فكان يستعمل العقوبات التي تصيب الإنسان بالإذلال وتجبره على الاستكانة والخضوع، وتميت ما لديه من كرامة وكبرياء وتعلمه التسليم وعدم المقاومة أو الاعتراض.

فكان إذا اقترفت تلك المسكينة ابنته خطأً ما يقوم بدفنها في التراب، فيظل الجسم كله مدفونًا ما عدا الرأس، وتظل هكذا نصف يوم تقريبًا إلى أن يخرجها بعد أن يتأكد من أنها استوعبت الدرس.

أو أحيانًا إذا كانت تتأخر عن تناول الطعام أو تعترض عليه يقوم برمي طعامها إلى الكلب الذي كان يربيه كي يحرس أرضه ويقول لها: إذا كنت تريدين طعامكِ اذهبي وخذي رغيفكِ من فم الكلب فلا طعام لكِ اليوم غيره.

فتضطر الطفلة المسكينة إلى الركض وراء الكلب وإقناعه أن يفتح فمه ويعطيها رغيف الخبز الذي يمسكه بين فكيه لتأكله.

ومن البديهي أنَّ طفلة تتربى بهذا الشكل ينتهي بها الأمر أن تكبر لتكون فتاة خائفة خاضعة، لذا كانت تخاف حتى من أن تمنع ولدها من أن يجر أفعاله القبيحة إلى البيت أو أن ترد يده التي ترتفع لتصفع أخواته متى شاء، فكان دور أم جمانة يقتصر على إعداد الطعام وتنظيف البيت وغسيل الملابس عدا ذلك لم يكن لها أي دور كأم توجه وتعلم وتمنع تطاول أولادها أحدهم على الآخر.

وبالطبع كان لجمانة الصغيرة الصامتة النصيب الأكبر من العنف الأسري الذي يقع عليها من بين بقية أفراد العائلة، فلم يبقَ لون من ألوان التعنيف إلا وقد جربته وأحسّت به من الكلمات النابية والتقليل من الشأن والاستهزاء بشكلها إلى الضرب والإهمال وكل ما يخطر على البال من سوء المعاملة.

الكراهية والألفاظ النابية هي اللغة الوحيدة التي كان يعبّر بها الأخوات والأخوة عن تفاعلهم مع بعضهم بعضًا، فلأتفه الأسباب كانت تقوم القيامة ولا تقعد داخل البيت.

(6)

كان لجمانة دفتر صغير تكتب فيه مذكراتها، فكتبت فيه في أحد الأيام تلك الكلمات:

لا أذكر أي يوم كان من أيام الأسبوع عندما أرسلتني أختي لأشتري لها علبة فول من الدكان، وعندما أتيتها بها صرخت في وجهي غاضبة ووبختني لأني جلبت النوع الذي لا تحبه، فشعرت بالغضب أنا أيضًا وبادلتها الصراخ.

فلم أشعر إلا وقد أوقعتني أرضًا وانهالت عليَّ بالضرب واللكمات، كنت أفتح عيني وأنا في حالة ما بين اليقظة والإغماء، فأجد عدة أيدي تضرب وجهي وتجرني من شعري، فانتبهت إنها لم تكن أختي لوحدها من كان يضربني، بل شاركتها أختي الأخرى في ذلك السباق، كانتا تتسابقان في ضربي وكأني ألدّ أعدائهما حتى فقدت وعيي من شدة الضرب، وعندما استيقظت وجدت نفسي مرمية على الأرض وكأنني خرقة بالية.

هل يمكن أن تفعل الأخوات كل هذا بأختهن الصغرى؟

ومن أجل علبة من الفول فقط!

هل يكرهانني إلى هذا الحد؟

كانت جمانة تكتب عذاباتها في ذلك الدفتر الصغير وتخبئه بعيدًا عن الأنظار، وفي أوقات كانت تراجع تلك المذكرات لتحاول أن تجد فيها شيئًا جميلًا يسعدها.. لكنها لم تكن تجد سوى ذكريات عن الشقاء والبؤس.

كل ذلك دفعها إلى أن تصاب برهاب اجتماعي شديد، فأصبحت تخاف المناسبات والحفلات التي يجتمع فيها الناس وتشعر بحرج كبير عند تواجدها بينهم. لأنك عندما تريد تحطيم شخصية طفل، ابدأ بالاستهزاء به واجعله أضحوكة للجميع؛ لذا سيفقد الثقة بنفسه ويصبح ضعيفًا خائفًا من التواجد وسط مجموعة من الناس.

بدأت جمانة تكبر وسط هذا الجو العائلي المخيف، لا أحد يهتم بها وليس هناك من يسمع أنين قلبها، وما زالت أشباح من خيالات الماضي تلتصق بعقلها الباطن تأتيها بين وقت وآخر فتشعر بالذل ويضيق نفسها حتى تكاد تختنق. فهي لم تكن طفلة تتعرض للعنف والإهمال فحسب، بل قد تفاقم الأمر بأحد أخوتها الذكور إلى أن تمتد يداه القذرتان ليداعب ويتحسس جسد تلك الطفلة المسكينة دون أن تفهم هي ماذا يعني أو يقصد بتلك اللمسات، لكنها كانت تشعر أنها تتعرض لإذلال كبير ولا تستطيع فهمه أو إخبار أحد عنه.

فمن تُخبر والى من تشتكي؟ وكل من حولها هم نسخ متشابهة في القذارة والوحشية باستثناء والدتها تلك المغلوبة على أمرها والتي كانت بعيدة بحنانها وأمومتها عن جمانة بُعد السماء عن الأرض، منهمكة بغسيل أكوام من الملابس المتسخة وصفوف الأطباق والقدور التي تتراكم بعد كل وجبة للعائلة، ولا أحد من أبنائها وبناتها يشعر بوخز في ضميره ويهرع لمساعدتها، إنهم كالبهائم تأكل وتتبرز دون أن تقوم بأي عمل مفيد.

عندما كانت جمانة في التاسعة من عمرها كانت تجبرها أمها على الذهاب برفقة أختها الكبرى إلى بيتها؛ لأنها كانت متزوجة ولديها طفل صغير وتحتاج إلى بعض المعونة، فكانوا يبعثون بجمانة لتبقى برفقة أختها الكبرى شهر أو شهرين خلال العطلة الصيفية.

تسكن تلك الأخت في بيت صغير داخل حي شعبي من أحياء بغداد القديمة، تلك الأحياء التي يتكدس فيها الناس بعضهم فوق بعض داخل منازل لا تتعدى مساحتها الخمسون مترًا، منطقة فقيرة ذات شوارع ضيقة وملتوية، وغالبًا ما يكون سكان المناطق الفقيرة مولعون بالتكاثر وزيادة النسل وكأنهم في سباق مع الفقر.

فكلما ضاقت عليهم الحياة أكثر كلما انتفخت بطون النساء بسرعة أكبر، فربما تكون ممارسة الجنس هي التسلية الوحيدة للفقراء!

فهم لا يمتلكون ناديًا خاصة يذهبون إليها ليفرغوا طاقاتهم هناك بالجري أو السباحة والرياضة، ولا تمتلئ رؤوسهم بمشاريع تجارية فيقضون الوقت في التخطيط والتفكير بكيفية إدارتها وإنجاحها، لا شيء ينهك قواهم العقلية والجسدية سوى العمل صباحًا والذي ينتهي عند الظهيرة، وبقيلولة صغيرة يذهب التعب الجسدي وتبقى الطاقات المختبئة تنتظر حلول المساء كي يتم التنفيس عنها بما هو متوفر وتحت اليد ولا يتطلب صرف الأموال، فمضاجعة نسائهم هي رياضة وتسلية مجانية للترويح عن النفس وتفريغ الشحنات السلبية والتخلص من ضغوطات الحياة بدقائق قليلة من المتعة المجانية، ولا يهم إن انتفخت البطون بعدها وازداد عدد الفقراء فردًا آخر بعد تسعة أشهر.

كان لتلك الأخت زوج زنديق شاذ لا يفرق بين طفلة أو امرأة شابة، وغالبًا ما كان يتلصص على جمانة من تحت عقب الباب وهي تخلع ثيابها.

وفي ليلة كانت هي وأختها على سطح الدار مع إحدى الجارات يشاهدن الألعاب النارية وهي تطلق عاليًا في سماء بغداد احتفالاً بفوز المنتخب العراقي، ولوهلة أحسّتْ جمانة ببعض التعب فنزلت لتستريح قليلاً على الأريكة في غرفة المعيشة في بيت أختها، استلقت قليلاً وبعد برهة دخل زوج الأخت الغريب الطباع ليجلس لمشاهدة برنامج في التلفزيون، شعرت جمانة برهبة وحاولت الرجوع إلى السطح مرة أخرى لكنه أتى وجلس بقربها ومنعها من الخروج، لكن برفق ودون صراخ مستعملاً أسلوبًا طيبًا لمجاراتها في الحديث، وقد انتبه إلى وجود تمزق في حافة فستانها الذي كانت ترتديه، فمدَّ يده قائلاً:

- سأزيل لكِ هذه الحافة الممزقة يا جمانة.

فمنعته وقالت بهدوء طفلة خائفة مغلوبة على أمرها:

- كلا اتركه سأزيله أنا فيما بعد.. أريد أن أذهب الآن إلى سطح الدار.

كانت تشعر بدوار غريب وصداع لا تعرف سببه، لكن زوج أختها القذر استمر بلمس ساقيها، استجمعت قواها بصعوبة رغم الدوار وركضت تجاه باب الغرفة فتحته وهرولت على

درجات السلم صاعدة نحو السطح بجانب أختها. وبالطبع لم تشعر أختها بشيء، فهي لم تكن تعتبر جمانة أكثر من خادمة أرسلوها لتعينها في تربية الصغير وليس أختًا لها أو ليس طفلة هي أيضًا بحاجة لرعاية وحب واهتمام.

كانت جمانة الصغيرة تكتم كل ذلك الألم في نفسها وتشعر أنها خلقت لتواجه الحياة بمفردها.. أما في الظاهر فيرى الناس أنها تعيش داخل أسرة لتحميها. في الحقيقة أنها تعيش داخل أسرة تمزق في نفسها كل حب للحياة، وكل هدف للعيش، لكننا أحيانًا نستمر في القتال ونقاوم الغرق ولا ندري لماذا... ربما هي الطبيعة ألبشرية والفطرة التي خلقنا عليها.

(7)

هـل يمكـن لرجـل طبيعـي أن ينظـر لجسـد طفلـة كنظرتـه الشـهوانية لجسـد امـرأة بالغـة؟ لـن يشـعر رجـل متـوازن نفسـيًا بهذا الشعور مطلقًا..

إنَّ كل المتحرشين جنسيًا بالأطفال الصغار هم من المرضى النفسيين الذين يختزنون داخلهم عقد ومشاكل اجتماعية قد لا تظهر للعيان بوضوح.

فما الذي يكون مغريًا ومثيرًا بجسد طفل أو طفلة؟

ثم من قال أنَّ مجتمعنا العربي والإسلامي لا تحدث فيه مثل تلك الانحرافات؟

على العكس تمامًا.. ففي القاع.. وفي المجتمعات الفقيرة والمزدحمة بالناس وفي البيوتات التي تغص بكثرة عدد أفرادها وتفتقر إلى الثقافة والمعرفة تكثر تلك التصرفات المشينة، ويتواجد مثل هؤلاء المنحرفون والمتحرشون الذين لم يكتشفهم المجتمع ولم يضع أحد عليهم علامات الاستفهام.

وهل ذلك الرجل الذي يتزوج من بنت قاصرة في الثامنة أو التاسعة أو حتى في الرابعة عشر من عمرها يعتبر رجلاً سويًا؟ ألا ينظر لها على إنها ابنته؟ ألا يشعر أنها تتصرف كطفلة لا تعي شيئًا عن الجنس والفراش وتربية الأطفال؟

فحتى جسدها لم يتخذ الطابع الأنثوي بعد، إنه جسد طفلة.. هل يمكن لرجل بالغ أن يضع طفلة بين أحضانه ويتحسسها بشهوة دون أن يشعر بالخزي والعار؟

لأن من المعروف أنَّ ما يجذب الرجل لجسد الأنثى هو تلك التفاصيل الأنثوية التي تتكون بعد البلوغ بسنوات بفعل الهرمونات الأنثوية التي يبدأ مبيضيها بإفرازها فتعطي تلك الهرمونات الملمس الناعم للجلد واستدارة الأرداف والفخذين ونمو الثدي نموًا كاملًا، ولن يحصل هذا إلا بعد البلوغ بعدة سنوات.

فلنفرض أنَّ هناك بالفعل تباينًا بين الفتيات في التوقيت الدقيق لبلوغهن وحدوث الحيض، وهو ليس افتراضًا في الحقيقة، بل هو واقع حال لأن هناك من تحيض وهي في سن الثانية عشرة من العمر بينما تتأخر أخرى إلى السابعة عشر. لكن هل بمجرد أن تنزل أول حيضة للفتاة نعتبرها امرأة كاملة وجاهزة للعلاقة الجنسية؟

بالطبع كلا... وستجيبنا الكتب العلمية عن هذا التساؤل بوضوح، وحتى جسد الفتاة نفسه يجيبك صارخًا بأنه لا يزال جسد طفلة. لم تكتمل عملية النمو بعد ولم يكتمل نمو رحمها وقناتها المهبلية وحتى مبيضها لن يحمل بيوضًا إلا بعد فترة من الزمن بعد تلك الحيضات الشهرية المتتالية في السنة الأولى لبلوغها، لن تحتمل تلك الفتاة الصغيرة العملية الجنسية ولن تشعر بمن يقوم بمداعبتها أو مضاجعتها بشعور المرأة الناضجة المكتملة الجسم والأنوثة لماذا؟

لأنها ببساطة لا زالت في طور النمو في طريقها للاكتمال الجسدي والعقلي لتصبح امرأة.

فما الذي يجذب رجلًا بالغًا لفتاة صغيرة لا زالت تنمو، حتى تضاريس أنوثتها لم تظهر بعد!

وأحيانًا يقشعر بدنك ويقف شعر رأسك وأنت تقرأ أو تسمع فتاوى لمشايخنا تتفنن في ابتكار طرق يتخيلونها شرعية لتدنيس براءة طفلة لا تزال ترضع من ثدي أمها، فيقولون لكَ يجوز التمتع بالرضيعة!

كيف يا ترى؟ كيف يا شيخنا نتمتع بمن لا تزال ترتدي حفاظ الأطفال الممتلئ بالبول والبراز؟

سيقولون لكَ نعم تستطيع بالمفاخذة، مفاخذة الرضيعة دون الدخول بها فيجوز التمتع بها على تلك الحال.

يا إلهي!
رحماك يا رب.
هل وصلت بنا الحال إلى هذه الدرجة من الوحشية!
ألم يكفهم كل ذلك الرعب على وجوه الصغيرات وتلك الصرخات المنبعثة منهن في أول ليلة رعبًا لهن وهن يواجهن ثقل وشهوة رجل فوق أجسامهن الصغيرة بعد أن شرعوا له الشيوخ صحة زواجه بمن في الثامنة من عمرها.
فعادوا للرضيعة ولم يعتقوها من ألسنتهم التي تتدلى شهوة، ولعابهم الذي يسيل لكل ما يسمى بأنثى، حتى لو كانت مجنونة أو متسولة ترتدي ثياب قذرة تهيم على وجهها في الشوارع فاقدة العقل.
لا فرق بين المنحرفين والمتحرشين جنسيًا وبين ذلك الذي يتزوج بفتاة قاصر لم تنضج بعد جسديًا ونفسيًا فكلاهما إنسان غير سوي.
هذا ما كان يختزن في ذاكرة جمانة من آلام وعذابات عاشتها في تلك السنوات وكأنها زهرة نمت وسط مستنقع من الماء الراكد الأخضر تسكنه الضفادع وتنمو فيه يرقات البعوض.

فحياتها عبارة عن حلقات متصلة من الحرمان، فبعض الناس ولدوا ليواجهوا الحياة بمفردهم.. بلا سند ولا معين.. تشبه حياتهم (لوحة الجحيم).

قد رسم الفنان (بوتيتشيلي) لوحة مفصلة لخارطة عالم ما تحت الأرض يصف فيها كل أنواع العذاب.. لوحة مخيفة مرعبة كئيبة رسمت بدرجات متعددة من ألوان الأحمر والبني والبني الداكن، عندما تنظر إليها تصاب بالرعب والاكتئاب.

وهكذا هي حياة بعض الناس.. ألم.. وظلم.. وحرمان.. ووحدة.

لم تحاول جمانة يومًا أن تخبر أحدًا بأسرار تصرفات أخيها أو زوج أختها ذاك، فهي في الأساس لم تكن تفهم ما نوع تلك الأفعال لأنها ما زالت طفلة عدا أن كل ذلك جعلها طفلة انطوائية خائفة.

(8)

تذكر جمانة ذلك اليوم جيدًا، كان أحد أيام تموز شديدة القيظ... دخلت لتستحم لكنها فوجئت بقطرات دم حمراء تخرج منها وتلطخ ساقيها، ارتعبت.. لم تفهم ما الذي يجري رغم أنها كانت تسمع أخواتها يتحدثن عن شيء يسمى بالدورة الشهرية وأوقات كثيرة كانت تشاهد كيسًا من الفوط الصغيرة مرسوم عليها صورة امرأة، يسحبن أخواتها إحدى تلك الفوط من الكيس ويذهبن إلى الحمام، ومن كل ذلك كانت تستطيع أن تكون فكرة عما يحدث.

فلا أم تحاول أن تتقرب منها لتشرح لها ما يمكن أن تواجهه الفتاة عند البلوغ ولا أخت تحمل في قلبها حب الأخت لأختها لتمسك بيدها وتهمس لها بما يجب أن تفعله في مواجهة هذه الحالة.

ففي بيت كهذا بالتأكيد سوف ينشأ الفرد محملًا بالعقد والاضطرابات النفسية، فإما أن يستمر به الحال هكذا أو يحاول هو اكتشاف مواقع الخلل في نفسه فيقومها ويحاول أن ينظر للحياة بعين أخرى.

لأن وطن الإنسان الأبدي وواحته الدائمة هي نفسه، وعليه أن ينقي تلك الواحة من الشوائب حتى تصفى مياهها فتعكس كل صور الحياة الجميلة.

وهذا ما قامت به جمانة في سنوات عمرها اللاحقة قوَّمت نفسها وقضت على كل عقدها النفسية ورهابها، لكن من يفعل ذلك لا بُدَّ أن يتمتع بذكاء كبير وروح صافية وهذا ما كانت عليه في الحقيقة.

في وسط لحظات من الرعب الذي سيطر على جمانة داخل غرفة الحمام، بدا تفكيرها يذهب بعيدًا في دهاليز مظلمة مخيفة، كانت تهمس لنفسها بكلمات تثير القلق مثل: قد أكون مريضة، قد أكون مصابة بالسرطان، فأنا سمعت من جارتنا عن اسم هذا المرض الذي لا أعرف ما هو، أو قد تكون تلك الدماء هي تلك الدورة الشهرية التي تتحدث عنها أخواتي لكن ماذا أفعل الآن؟

هل أستنجد بأحد لكن من هو؟

كانت تلك اللحظات تمر عليها ثقيلة مرعبة، لا تدري كيف لها أن تتصرف، وهل تخفي هذا الأمر أم تكشفه؟

خرجت من الحمام خلسة، تسللت ماشية على أطراف أصابعها متجهة نحو المطبخ، فهي تذكر أنَّ أخواتها كن يضعن كيسًا من الفوط النسائية في إحدى الخانات من

دولاب المطبخ الخشبي، ولحسن حظها كان الجميع يأخذ قيلولة مصطفين في غرفة المعيشة على بلاط الأرض تحت الهواء البارد الذي يأتي من مبردة ملتصقة بالنافذة.

أمسكت جمانة بكيس الفوط النسائية وسحبت واحدة منها ووضعتها بين ساقيها ثم ارتدت ملابسها الداخلية بخوف وحذر خشية أن تراها أمها أو أختها وكأنها تخفي سرًا مخجلًا أو عملاً شائنًا اقترفته.

وذهبت لتجلس بهدوء في أحد أركان باحة الدار الداخلية تحت الشمس، فقد كان ألم بطنها يكاد يمزقها وهو يزداد شدة كل دقيقة، ألم يمتد من أسفل ظهرها وبطنها فيتوزع على فخذيها وساقيها، لكنها كانت تشعر أنَّ حرارة الشمس تخفف من ذلك الألم، غطت رأسها بقطعة قماش كي تحتمي من حرارة شمس الظهيرة الحارقة وكي لا تصاب بضربة شمس وصداع، مددت جسمها على الأرض كي تعرض بطنها للحرارة فتزيل تلك الآلام المبرحة.

في صباح اليوم التالي لاحظت أم جمانة تلك الحالة الغريبة على ابنتها بعد أن انتبهت وهي تغسل ثوب جمانة بأنَّ هناك بعض قطرات دمٍ حمراء قد لطخت الثوب ففهمت الأم ما يحدث.

جلست جمانة لتستريح قليلًا على الأريكة فلم تشعر إلا وأمها تنظر إليها نظرة غريبة قالت الأم:

- ما بكِ يا جمانة، هل تشكين شيئًا.. أشعر أنكِ كالزهرة الذابلة.

وبالتأكيد لم تكن جمانة فتاة غبية، بل كانت شديدة الفطنة لذا فهمت من نظرة أمها ونبرة صوتها أنها عرفت أنَّ ابنتها قد بدأت تحيض، وقد وضعت أول خطواتها في طريق نموها كامرأة، لكنها استاءت من تدخل أمها في شؤونها، فهي التي عانت من إهمال أمها لها وبُعدها عنها، وتعودت أن تعالج أمورها على أنها بنت وحيدة في عالم مغلق، فأشاحت بوجهها بعيدًا عن أمها قائلة:

- أنا بخير، اتركيني فحسب.

ففي هذا العمر الحرج يكون الفتى أو الفتاة شديدي التوتر والحساسية وبالأخص تجاه أسرارهم العاطفية والجسدية، فهم يخبئون بلوغهم وعلامات نضجهم الجسدي كما يخبئون سرًا مخجلًا ليس من حق أحد الاطلاع عليه.
لكن يحدث هذا فقط في مجتمعاتنا العربية بسبب ضعف ثقافة الجسد والخجل من الحديث عنها.

(9)

توالت السنوات تلو السنوات... تكبر جمانة ويكبر معها انطوائها وعزلتها، وقد أصبح المنزل أكثر هرجًا ومرجًا بعد وفاة والدها، فقد كان الرجل طريح الفراش لعدة أشهر ثم فارق الحياة متأثرًا بفشل كلوي أدى إلى توقف كليتيه الاثنتين دفعة واحدة، فكان من الأفضل له أن يستريح من رحلة حياته الشاقة التي قضاها بين السعي لإطعام أفواه جائعة تنتظره وبين مرض نخر جسده المتعب.

كتبت يومًا جمانة في دفتر مذكراتها هذه الكلمات:

أنا أحبُّ الشعر، فعندما أقرأ أبيات من الشعر أشعر أنني أطير فوق الغمام، كان أخوتي يحضرون معهم المجلات والجرائد إلى البيت، فاقلبها وأقرأ ما فيها من قصائد وكلمات ثم أنقل تلك القصائد في دفتري الصغير واحتفظ بها.

إنه عمل بريء لم أقصد منه أي شيء لكنهم لم يفهموني، فقد دخل أخي عليَّ الغرفة وأنا أذاكر دروسي وقال إنه شاهدني أحتفظ بدفتر أكتب فيه أشعارًا ونظر إليَّ بعينين يملؤها الشك والاتهام بأنني فتاة سيئة لأنني أحتفظ بمثل هذا الدفتر وصرخ بي طالبًا أن أعطيه إياه.

فأعطيته له ومزقه أمام عيني وتوعدني لو كررت فعلتي هذه وكتبت شعرًا في دفتري فسوف يلقنني درسًا لن أنساه، أحسست في وقتها بأنه يمزق قلبي وليس دفتري.

لكن لماذا يفكر أخي هكذا؟

لماذا يعتبرني سيئة السلوك لو أحببت الشعر؟

هل كان يظن أنني سأرسله إلى أحد الشبان مثلًا؟ لأنني قرأت هذا الشيء في عينيه عندما نظر إليَ... لكنني أخشى حتى من الكلام مع أي شاب.. فأنا أشعر بأنني فتاة غريبة.. منعزلة.. خائفة من كل شيء.

هل لأنه يأتي بالفتيات السيئات إلى بيتنا يرى كل فتاة في نظره هي سيئة الخلق حتى أخته!

أذكر جيدًا ذلك اليوم الذي كان المنزل فيه خاليًا إلا مني، فقد كانت أمي في السوق وأخواتي قد تزوجن وذهبن إلى منازلهن وكذلك أخي الأكبر قد تزوج وتركنا وانشغل عنا، وكنا أنا وأمي وأخي الآخر فقط من يسكن المنزل، فاستغلَّ أخي غياب أمي وأحضر إحدى النساء سيئات السمعة معه إلى المنزل.

ولم يكن منزلنا يتكون إلا من غرفة المعيشة وغرفة أخرى صغيرة جدًا نضع فيها حاجاتنا وملابسنا وباحة في وسط الدار مكشوفة، أذكر أنه طردني من غرفة المعيشة وقال لي:

اذهبي واجلسي في باحة الدار، ولا تدخلي أبدًا فإنَّ معي ضيوفًا، وقد كنتُ أعلم من هم ضيوفه لأني سمعت الضحكات الداعرة لتلك المرأة.

فاستسلمت لأوامره وجلست في باحة الدار لبرهة من الوقت حتى رأيته يخرج متجهًا نحوي وأمرني أن أحضر له غطاءً خفيفًا.

لم أكن طفلة حينها فقد كنت في الثامنة عشرة من عمري وأفهم لماذا يطلب الرجل غطاء وهو برفقة امرأة.

فأحضرت له ما طلب وأنا مجبرة لكني كرهت نفسي حينها وتقززت من أخي ومن المنزل الذي أعيش فيه، أحسست أنني أعيش في بركة للقذارة وهذا ما لا أستحقه فعلاً.

كان جمال جمانة يزداد كل يوم... ويزداد معه وجهها شحوبًا من قلة الطعام والقهر والظلم النفسي والجسدي الذي تتعرض له داخل البيت، لم تعرف معنى أن تشتري يومًا ثوبًا جديدًا، فكل ما كانت ترتديه هو من ثياب أخواتها بعد أن تنتهي موضتها فيرمينها لها فتقوم بتضييقه وتقصير طوله كي يصبح على مقاسها، وحتى بعد زواج أخواتها لم يتحسن الحال المادي للأسرة، فكانت ترمي لها أخواتها المتزوجات ثيابهن القديمة لتلبسها.

فالحياة لا تعطي أحدنا حقوقه من تلقاء نفسها وليس من صفات الحياة أن تكون عادلة، لذا فإنَّ من يطالب بحقوقه سيحصل عليها، حتى لو بعد معارك طويلة.

هكذا كان الأخوة والأخوات يحصلون على حصتهم من الثياب بالتنافس والسباق والمعارك مع بعضهم بعضًا، حينما كانوا جميعًا يعيشون في منزل واحد قبل أن يتزوج الفتيات ويذهبن.

فتكون الغلبة أخيرًا لمن يتعالى صراخه أكثر، فيشتري ما يحتاجه من ثياب وبالطبع لم تكن تلك الانطوائية من المتنافسين أو المتبارزين في الحلبة؛ لذا كانت تحصل على الثياب القديمة بعد أن يرميها أصحابها مللاً أو بطرًا.

دخلت الانطوائية الحزينة الجامعة التي كانت تحلم بها ومع أنَّ هذا ليس من شيم الحياة، إلا أنَّ أول حلم لجمانة قد تحقق بعد إصرار وجهد وسهر تمكنت من الحصول على قبول في كلية الطب، هدف طالما كافحت من أجل تحقيقه.

فالظروف الحياتية القاسية ستصقل معدنكَ وتزيل عنه ما يعتليه من شوائب، ستظهر على حقيقتكَ، فإن كنتَ معدن حر أصيل فستلمع وتتألق لن يكسركَ ما مررتَ به وستتحمل لاحقًا كل المطارق التي ستدق فوق رأسكَ، وإن كنتَ هشًا

تافهًا في جوهركَ فستغير تلك الظروف والأحداث مسارك وتنزلق في وحل الخزي والهزيمة والانحطاط، ثم ترمي بالذنب على ظروفكَ وقسوة واقعكَ.

كان معدن جمانة ذهبًا خالصًا، لذا انكبت على تهذيب نفسها وتقويم روحها، كانت تلتهم الكتب التهامًا علمية واجتماعية، فتقفز كالصاروخ من مرحلة دراسية إلى أخرى، وتنضج أفكارها بالقراءة والتزود من كتب الأدب والروايات الاجتماعية التي تهذب الخيال وتنقي الروح.

الألم والوحدة وسائل فعالة لتعزيز النمو الذاتي.. والمعاناة هي من أكثر الأشياء التي تجعلك أفضل.

يقولون أنَّ الألم سيتلاشى يومًا ما لكن سيخرج منا إنسان جديد أكثر صلابة وحكمة.

فتحت جمانة يومًا كتابًا قد أهدته إياها صديقة لها في الكلية، صديقة كانت محبة للقراءة والمطالعة، وقد لاحظت شغف جمانة بالكتب فكانت تعيرها بعضًا منها فتلتهمها جمانة خلال يومين وتقرؤها بنهمٍ كبيرِ.

كان الكتاب يتحدث عن كيفية مساعدة الفرد لنفسه وانتشالها من الضياع والظروف السيئة التي تحدث له، فقرأت سطورًا تقول:

قم بأقصى ما لديك.. ودع الحياة تقم بالباقي، فالسماء تساعد هؤلاء الذين يساعدون أنفسهم، فأنتَ يمكنك بالفعل أن تختلق الكثير من حظك.

لماذا أتينا إلى هذه الحياة؟

ما المقصود في أننا نعيش هنا لنقاسي المرض.. الألم.. الجوع.. التعب.. ما الهدف من كل ذلك؟

لا بُد أنَّ الهدف هو أن نعود عبر كل ذلك إلى نفسنا الحقيقية التي لا تخاف.. النفس الحكيمة ذات الحب اللا محدود، الهدف هو أن نتعلم من كل الدروس التي نمر بها، والتي صممت لنا بإتقان كي نتعلم منها ونصل في نهاية الرحلة إلى مركز الكمال.

اجعل الدائرة هي قدوتك.. كن كالدائرة.. فالدائرة مرنة.. تقاوم الضغوط وتتكيف معها... هذا لا يعني أن تكون منافقًا أو متلونًا إنما يعني أن تكون مرنًا متفتحًا تتقبل الآراء والانتقادات والاختلافات، فالدائرة هي رمز الكمال والنزاهة، وهي مركز الكون.

يقول الهنود الأمريكيون الأصليون.. الحياة دائرة.

كانت تلك الكلمات لمؤلف كتاب (اكتشف مصيرك) الرائع (روبين شارما).

كتاب يأخذ بيدك لينتشلك من إحباطك واكتئابك بكلماته الماسية التي تلامس الروح، فكانت كلماته تزيل الصدأ والتراب عن روح جمانة، ذلك الصدأ الذي تراكم داخلها وهي تكبر في منزل يعج بالكراهية والحزن، فراحت ترتشف من زلال الكلمات لتشفي ما مرض من روحها.

(10)

لأول مرة دخلت فيها حرم الجامعة سارت جمانة بخطوات متأنية إلى عالمها الجديد، وضعت أحمر الشفاه الزهري على شفتيها، وسرحت شعرها وعقدته كذيل حصان، كانت تشبه أزهار الياسمين في النقاء والصفاء، وقد تشعرك مشيتها ومحياها بأنك ترى أميرة أغريقية... بعينين ساحرتين وجسد يفيض أنوثة ونعومة.

لعينيها نظرة ساحرة.. وحكاية تقص عليك قصص الغرام والكبرياء والشموخ بنظرة واحدة.. عينان تخفيان حزن أبدي... وإصرار لا حدَّ له.

لم يكن إصرارًا على النجاح فحسب، بل كانت لها قوة داخلية تجعلها تمسك بقطع روحها لتمنعها من التهشم.. فهي قد قاست كل أنواع الألم من أول يوم فتحت فيه عينيها لترى نور الشمس وإلى يومها هذا؛ لذا لم يكن هناك شيء يخيفها أو يرعبها في هذه الحياة.

فحتى أول يوم دخل فيه الطلاب في كلية الطب قاعة تشريح الجثث ليقفوا في مجموعات مكونة من عشرين طالبًا وطالبة، تجتمع كل مجموعة حول طاولة حديدية ممددة عليها جثة؛

ليقوموا بتشريح أجزاء الجسد ودراسة كل عضو فيه دراسة مستفيضة، لم ترتعب جمانة ولم تتقيأ من منظر الجثة كما فعل غيرها، بل ظلت تنظر وتتأمل، بقيت في ذاكرتها يد ذلك الرجل الميت كان رجلاً أسود البشرة من الهنود، ففي الهند عادة تحرق جثث الموتى غير المسلمين وينثر رفاتها في النهر؛ لذا كانت الدول التي فيها كليات للطب تشتري تلك الجثث لهؤلاء الموتى لغرض تدريب الطلاب على تشريح الجسم ودراسة مسار الأوردة والشرايين والأعصاب وأنواع العضلات والأعضاء الداخلية بشكل مستفيض.

كانت جمانة تنظر إلى الجثة التي أمامها، رجل هندي نحيف جدًا، إحدى يديه تيبست على حالة الموت التي قاساها لحظتها والتي وحده الله يعلم بها، كانت أصابع اليد تتخذ وضع الانحناء وكأنها تسحب أو تتمسك بشيء وفمه مفتوح على هيئة من كان يصرخ صرخة قوية مرعبة يبدو أنَّ تلك الصورة والحركة هي التي مات الرجل عليها وتيبس جسده محافظًا على ملامح الخوف والألم التي قاساها في لحظتها.

كانت صورة الرجل مرعبة، يبدو أنَّ الموت مرعب فعلاً.. لكن ما نقاسيه في الحياة قد لا يقل رعبًا من الموت نفسه.

لربما يكون الموت أسهل من الحياة... لأننا نتقبل الموت ونستسلم له لكننا لا نعرف كيف نتعامل مع صعوبة الحياة،

فالحياة معقدة غريبة.. لغز مربك يطرح عديمي الخبرة أرضًا.. ولا يستطيع حله إلا من يمتلك روح المراوغة والمغامرة.

خلال سنوات الدراسة في الكلية كونت جمانة القليل من الصداقات مع زميلاتها وزملائها، فهي ما زالت تلك الفتاة الانطوائية الصامتة.. الحزينة الخجولة التي تحمل قلبًا كقلب طفلة تتطلع لظلم الحياة بعيني البراءة والدهشة.

لكن لم يكن قلب جمانة خاليًا، بل على العكس كان ممتلئ به.

إنه هو حبها الأول وربما قد يكون الأخير.. من يعلم!

هو الذي لم تبتسم في وجهه يومًا... ولم تحدثه عيناها الساحرتان بحبها الكبير يومًا.

لم تجرؤ يومًا على إظهار ما تشعر به تجاهه، كانت تدفن في صدرها حبًا كبيرًا ولد من أول يوم لمحت خياله فيه وظل يسكنها عمرًا بأكمله.

كانت تشتعل من الداخل بالحب رغم أنها ساكنة من غير اضطراب من الظاهر.

لكن كيف نكون بهذا الجفاء مع من نحب؟

سؤال قد تتعدد إجاباته.. لكن في حالة جمانة الإجابة تختلف؛ لأن الكبرياء قد يكون أحيانًا مشكلة كبيرة، وقد

كانت جمانة من ذلك النوع من الفتيات تعتز بنفسها كثيرًا، وتعتقد أنَّ مجرد التلميح لمن يسكن قلبها بنظرة تفضح حبها هو إهانة لكبرياء الفتاة وتصغير من قيمتها.

لا تدري لماذا ومن أين تكونت لديها تلك الفكرة، وبالتأكيد هي من أكثر الأفكار خطأ، فنحن عندما نعشق أحدًا لا بُدَّ أن نشعره بحبنا واهتمامنا.

وليس في ذلك أي إهانة للكبرياء، بل على العكس الحب الصادق يزيد الفتاة كبرياء، وحتى لو تركت جمانة موضوع الكبرياء، فمن غير الممكن، بل كان مستحيلًا عليها أن تتجاوز خجلها ومنه هو بالذات، فكلما كانت تراه مارًا أمامها يبدأ قلبها بالضرب بقوة كما تضرب الطبول استعدادًا لبدء المعركة.

تعشقه حد الجنون، تهيم به، بصوته، بضحكته القصيرة المقتضبة، بعينيه، حتى أنها تطيل النظر لكل رجل تجد فيه شبهًا منه.

فعندما تحب بكل كيانك ستعرف أنَّ الحب هو تحرر الروح.. ستشعر أنك حر... وحبك ليس له حدود.. فالحب هو أن تعطي لا أن تأخذ... فلا يجب أن نستعبد من نحب.. لأننا لو قيدناه لن نستمتع بصحبته مطلقًا.. سيصبح كالعصفور في

القفـص.. يـذبل ريشـه وتختفـي بهجتـه بعـد أن حرمنـاه مـن التحليق وسجناه في قضبان حديدية...
لا بُدَّ لنا أن نطلق من نحب.. نجعله حرًا.. فلا أحد يمتلك أحدًا..
إنَّ أجمل ما في الحب هو أن تحظى بقلب من تحب لا أن تتسلط على كيانه وحياته..
دعه حرًا طليقًا.. احترم ما بينكما من حدود وخصوصية.. وأحبه بكل طاقتك... عندها فقط سترى العجائب.
فالعطاء والحب هما فقط من يضمن لك بقاء من تحب إلى جانبك.
ملك نبراس قلب جمانة مذ كانت في السادسة عشر من عمرها، حفر اسمه فيه وكتب عليه (ملكية خاصة).
شغفها حبًا... ذلك الشعور بالانجراف لشخص ما.. ولا تعرف لماذا؟
إنه منتهى الحب... وقمته.
في مرحلة الشغف تلك تتوقف عقارب الساعة لديك...
تسير دون أن تعلم ما الذي ينتظرك في نهاية الطريق...
هل هي واحة غناء أم بركان هائج..
إنه يعيقنا عن الشعور بالسلام في حياتنا.. بشعورنا بجمال الروتين اليومي الباهت...

لأن شيئًا ما في داخلنا يصرخ مناديًا... قلبي ليس في حوزتي.
لم يستطع أحد من الشبان في الجامعة أن يحظى بقلب جمانة أو حبها..
فكم سحرت عيناها منهم، وكم قلب أبتلي بحبها وهام بها دون أن تدري..
كانت تلميحاتهم وكلماتهم تصطدم بجدار من الرفض والسكون.. وكأنها تقول... قلبي له هو.. هو ولا أحد غيره.
رغم شعورها القاتل بالوحدة.. وحاجتها إلى حب يذيب صقيع الأيام الباردة..
فقد يحدث أن يطلب ودك الكثيرون.. لكنك تتملص منهم.
وقد لا تتوقف الرسائل.. وقد يتمنى أشخاص أن يجتمعوا بك في لقاءات أو حفلات.. لكنك تعتذر عن كل ذلك وتفضل الركون إلى وحدتك...لأنك تعلم أنَّ لا أحد من هؤلاء ممن حولك سيعوضك عن اشتياقك لمن سكن قلبك.

(11)

كلما كانت جمانة تعزم على أن تضخ الشجاعة في نفسها كي تقترب منه قليلاً وتخترع فرصة لتسلم عليه أو تحاول أن تسترسل في حديث، كان نبضها المتسارع يمنعها وخوفها من أن تكون غير محببة إلى قلبه، انفعالات كثيرة لا تعرف كيف تفسرها.

وفي يوم أخبرتها صديقة لها في الجامعة بأنها ستذهب لزيارة أخيها في كلية الفنون وسألت جمانة أن تأتي معها.

تواجدتا في ساحة كلية الفنون بعد ساعة واحدة، كان أحمد ومجموعته بانتظارهما، عرّفتها صديقتها على أخيها أحمد وعرفهم أحمد على بقية الأصدقاء واسترسل الجميع في جلسة شبابية جميلة.

ظلت عينا جمانة تبحث عنه, لا بُد أنه هنا, فهو الآن في المرحلة الأخيرة من كلية الفنون يدرس الموسيقى ويتابع تطوير عزفه على الكيتار.

تمنت لو أنها تلتقي به؛ لذا تركت صديقتها قليلًا وسارت مبتعدة إلى داخل رواق الجامعة محاولة أن تستجمع كل

شـجاعتها وقوتهـا لتحظى بـدقائق تلقـي فيهـا التحيـة عليـه أو بعض الحديث معه.
كـل زوايـا الجامعـة كانـت تصـرخ بـأعلى صـوتها وتقـول لمـن يزورها لأول مرة بأنها كلية للفن والفنانين.. ففي كل الأركان لا بُد أن يقع نظرك على تمثال أو منحوتة لشخصية تاريخية أو فنية، وإن نظرت إلى الجدران ستراها تمثل لوحات فنية قامت ريشة الطلبة الموهوبين برسمها بكل احترافية.
جالـت جمانـة بنظرهـا علـى كـل ذلـك الفـن والجمـال داخـل الجامعة وهي تسير وقلبها يبحث عن خياله.
ولا بُد أنَّ الحظ كان كريمًا معها جدًا في ذلك اليوم..
فقد مرَّ نبراس بالصدفة من أمامها... وعلى بعد خمسة أمتار فقط...
يسير في خط مستقيم نحو قاعة المحاضرات مشغولًا بشؤونه لا يلتفت لأي اتجاه ولا يمكن أن يخطر بباله أن تتواجد تلك الفتاة الجميلة الصامتة هنا بالطبع.
سار مسرعًا، حاولت جمانة أن تسرع لتلحق به، أصابتها نوبة الخجل وتسارع نبضها، ارتعبت ثم خففت خطواتها إلى أن توارى نبراس عن ناظريها داخلاً قاعة المحاضرات.

رجعت جمانة بخيبة كبيرة ,كانت تتمنى أن تسمع صوته ولو للحظات, لكنها اكتفت بسد رمق شوقها له بثوان قليلة كان يسير فيها أمامها فتحتضن عيناها خطواته بصمت.
قلبها يهيم عشقًا بحبيب لا يعلم عنها شيئًا ولا يكترث.
كانت ترقص بحبها رقصة درويش غارق في حب الله... خلع عقله وراح يحب بقلبه.. منتشية في حبه من غير خمر.
كانت أغنيات فيروز تنساب من مكبر الصوت داخل مقهى الكلية فيصل صوتها إلى الساحة والحديقة.
فيأتي اللحن والصوت الملائكي ليطرق سمع جمانة بكلمات تنطق لسان حالها..
مشتألك.. لا بقدر شوفك ولا بقدر أحكيك..
بندهلك خلف الطرقات وخلف الشبابيك...
جرب إني انساك.. بتسرق النسيان..
وبفتكر لاقيتك... برجع للي كان..
وتضيع مني كل ملاقيتك.. أنا حبيتك.. حبيتك..
أنا حبيتك.. حبيتك..
آه يا فيروز... تنهدت جمانة وأغمضت عينيها لتستعيد صورة نبراس في مخيلتها..
وهي تردد كلماتها همسًا... (كم أحبك).
لكن ما الذي كان يحدث لو كان اللقاء بشكل آخر؟

لو لم يسرع نبراس الخطوات؟
لو لحقت به وتحادثا قليلًا, هل سيحبها؟
هل سيشعر بحبها له؟
هل سيتغير القدر؟
كانت تضرب الأفكار في رأسها دون أن تعلم أنَّ حبيبها كان قد سرقه قلب آخر.
ما أصعب الحب على النساء، إنه يجعل المرأة هشة.
لم تكن تعلم أنه يعيش في قصة حب عارمة منذ أربع سنوات، وسيتزوج بعد التخرج.

(12)

(نغم)

التقاها عند دخوله الجامعة في السنة الأولى، ومن بين عشرات الفتيات أحسَّ بشيء ما يشده إليها، لعينيها السوداوين الواسعتين، لبشرتها الخمرية الصافية، أحبها بجنون وقالت له أنها أحبته، قالت له... وصدقها!

نغم حبيبة نبراس، تلك التي أخذت قلبه بعيدًا ولم يعد إلى صدره يومًا.

وما أقسى أن يأخذ أحدهم قلبكَ ويترككَ.

لأنك عندما تعشق سيتغير العالم من حولك، ستراه ملونًا بألوان قوس قزح، ستعيش وقلبك خارج صدرك قد وضعته في قبضة من تحب، فلو خانك من عشقت، ستشعر أنك قد وصلت إلى تلك الانعطافة، سيتغير المسار ولن يعود أي جزء منك كما كان في السابق.

وكم سيكون سيء الحظ من يعشقك بعد تلك الانعطافة القاسية.

كم من الخيبة والألم سيحصل عليها من يعشقك بعد أن فقدت قلبك وصار في سلة مهملات الحبيب الغادر.
لأنك ستكون على قيد الحياة بيولوجيا فقط، تأكل وتتنفس وتضحك وتعمل كآلة صماء لا تملك قلبًا.
وقد تذبح من يعشقك بنفس السكين التي ذبحوك بها، فتهجر أو تهمل أو تتقمص أدوار الحب الكاذبة دون أن تشعر بالذنب.
بعد أن تغيّر مسارك عند نهوضك من سقوطك إثر حبيب غادر، لن تكون أنتَ الذي كنت عليه سابقًا.
ستكون شيئًا آخر.. إنسان آخر... أو ذكرى إنسان.
كانت نغم من عائلة غنية مترفة، بنت مدللة عاش معها نبراس أربع سنوات في غرام كبير، كانت قبلاتها المحمومة تنقله إلى عالم آخر، عالم دخله لأول مرة إنه عالم الحب الذي يحدث لمرة واحدة فقط، الحب الذي لا يموت ولا ينتهي ولن يتكرر.
كثيرًا ما كانا يسرقان القبلات خلسة في قاعة الدرس قبل دخول الطلاب أو في سيارتها الفارهة، ولطالما أحسَّ نبراس أنها زوجته وحبيبته وحلم عمره الذي سيتحقق قريبًا.
كانا ملاصقين لبعضهما طيلة الوقت... وكأنها ظله الذي لا يفارقه أبدًا.. في نادي الكلية... في المحاضرات... في

قاعات العزف والتمرين الموسيقي... وقد يخرجان أحيانًا هربًا من الدروس والتمرينات ليأخذا نزهة في سيارة نغم، وقد يجلسان في إحدى الحدائق تحت شجرة تظلهما وتخفي قبلاتهما الحارقة ومداعباتهما المحمومة لبعضهما.

في أحد الأيام كانا يجلسان ملاصقين لبعضهما في قاعات المحاضرات، وقد كان الأستاذ يتكلم عن كيفية تدريب الأذن على الإصغاء إلى الأصوات.

فكان يقول:

خُذ نفسًا عميقًا كل يوم لمرة أو اثنتين، ثم أصغ إلى الأصوات حولك صوت مكيف الهواء، دقات ساعة الحائط, آلات الطباعة وضجيج محركات السيارات. ومن ثم أصغ إلى صوت تنفسك، إلى صوت هبوب الريح الناعم، إلى وقع الأقدام في الغرفة حتى إلى حفيف أوراق الشجر، ثم تابع في توجيه إصغائك إلى الأصوات الأقل قوة، ركز على ذلك ومتى تتمكن من سماع دقات قلبك تكون قد طردت الضجيج. فالموسيقى هي أفضل الطرق لتنمية رهافة السمع، فبمقدورك زيادة انتعاش روحك من خلال التركيز على ما تعرف أنه ينعشك ويفرحك.

كان الأستاذ مسترسلاً في محاضرته وقد بدا بشرح مراحل تطور الموسيقى الغربية حينما لفت انتباهه صوت ضحكة

عالية خرجت من أحد الجالسين في الصف الثالث من المدرج،كانت تلك ضحكة نغم.

فقد كانت في ذلك اليوم ترتدي تنوره قصيرة وعند جلوسها ارتفعت تنورتها إلى ما فوق الركبة، وقد كانت ساقاها ممتلئتين وملفتتين للنظر، فأثار هذا المنظر غيرة نبراس ورغبته في الوقت ذاته، فأراد أن يبين لها غضبه من ارتدائها تلك التنورة القصيرة، فقرصها من ساقها بقوة ومن شدة المفاجأة انفجرت بضحكة واضحة وعالية.

كانت قصة حبهما معروفة لدى الجميع حتى عند المحاضرين والأساتيذ؛ لذا حاول الأستاذ تنبيههما إلى احترام وقت المحاضرة والتصرف بلياقة أو الخروج حالًا من قاعة الدرس.

اعتذرا له بخجل بينما كانت الابتسامة ترتسم على كل الوجوه من حولهما لأن أكثر الطلاب كانوا يعرفون مشاغبات نبراس وولعه بحبيبته نغم.

أكمل الأستاذ محاضرته قائلًا:

مرت الموسيقى بمراحل عدة حتى أصبحت على ما هي عليه اليوم، ففي القرون الوسطى كانت تتميز بانتشار الجوقات الكنيسية التي ترتل الأناشيد والابتهالات الدينية (الكورال)

في الكنائس أو الأديرة ولهذا كان الصوت هو الأساس وليس الآلات.

أما في عصر النهضة فقد نمت الموسيقى التي تعتمد على تعدد الأصوات فكل صوت يعمل باستقلالية عن الآخر، لكنها تتناغم جميعًا فيما بينها، وحدث في هذه الفترة أيضًا طبع النوتة الموسيقية وانتشار اللحن.

تلتها فترة الموسيقى المتنوعة وهي تنوع النغمات الموسيقية إنما ضمن تناغم وتناسق كلي، ثم جاءت الفترة الكلاسيكية فولدت السوناتا وكان من أشهر موسيقيي هذه الفترة موزارت وهايدن وبيتهوفن.

بعدها جاءت مرحلة الرومانسية فكانت مقطوعات براهامز وشوبان وشوبيرت.

أما في القرن العشرين برز مؤلفون موسيقيون أمثال شتراوس الذين ثاروا على القيود ورسموا خطًا موسيقيًا جديدًا، كذلك تميّز هذا العصر باختراع الآلات الألكترونية مما سمح للناس الاستماع إلى الموسيقى في منازلهم وسياراتهم.

شكرًا لكم تستطيعون الانصراف الآن..

قال الأستاذ ذلك وخرج من القاعة مسرعًا.

فأمسك نبراس بيد نغم بقوة وسحبها إلى الخارج معلنًا غضبه وغيرته المشتعلة:

- ألـم أقـل لـكِ لا تلبسـي تلـك التنـورة القصـيرة مـرة أخرى.. لماذا تصرين على إثارة جنوني؟
- مـا بـكَ.. ألـم تنظـر إلـى الجميـع مـن حولـكَ.. كـل الطالبـات يرتـدين نفـس النـوع مـن التنـورات التـي أرتديها لأنها موضتها الآن.
- وما دخلي أنا ببقية الطالبات.. فليذهبن إلى الجحيم.. كل ما يعنيني هو أنتِ، لا أستطيع تحمل أن ينظر أحد إلى ساقيك الرائعتين، أنتِ لي وحدي.
- اووف، وماذا إذن.. هل أرتدي جلبابًا غدًا لترضى!
- لـم أقـل هـذا.. لكـن فلـتكن تنورتـك أطـول بعـدة سنتمترات فقط يا حبيبتي.
- سـأحاول... هيـا بنـا الآن لنتنـاول شـيئًا، فـإنَّ معـدتي تأكل بعضها من الجوع.

كانـت نغـم تشـعر بـالفخر والغـرور لأنهـا حبيبـة أكثـر الشـباب وسامة في الكلية.. وهي الوحيدة التي حظيت بقلبه... بينما تكسرت حوله كثير من القلوب دون شفقة منه أو رحمة.
فالحب ليس بأيدينا.. لا سلطة لنا عليه.. ولا أمر..

ولأن الحب يرى بنظارات ملونة ويعمى عن أخطاء الحبيب لم يشعر يومًا نبراس أنَّ حبيبته لم تكن إلا فتاة خائنة.
كان يعيش معها حلم عمره وكانت هي تقضي وقتًا جميلًا لا غير، تلهو وتستمتع بحبه وعشقه لكنها لم تفكر يومًا أن يكون هو زوجًا لها.

(13)

جاءت نغم ذات صباح غائم..
لتفجر القنبلة في وجه نبراس
وتخبره أنها مجبرة على الزواج من ابن خالها.

- والدتي ووالدي سيدمرا حياتي يا نبراس.
- ما بكِ نغم.. حبيبتي أخبريني؟
- إنه ابن خالي، رجل غني وتحبه العائلة أنا في حرب معهم منذ أسابيع، سيرغمانني على هذا الزواج، لن أستطيع الرفض.
- هل جننتِ؟ أنتِ لي أنا، لن يأخذكِ أحد مني يا نغم. اسمعيني حبيبتي سأذهب إلى والدك.
- لا أرجوك لا تحاول، سيغضب مني.
- إذن سأذهب إلى عمكِ، ألم تقولي إنه قريب منكِ ويحادثكِ كصديقة له. سأشرح له كم أحبكِ وسأطلب يدكِ منه وأحاول أن أطلب منه المساعدة كي يقنع والدكِ.

- لا أعتقد أنَّ هناك أي أمل يا نبراس. أعطيني فرصة لهذه الليلة فقط.. سأذهب إلى عمكِ وأحاول المستحيل. لا يمكنني أن أعيش يومًا واحدًا بعدكِ يا حبيبتي، ولا أستطيع أن أتخيلكِ ملكًا لرجلٍ غيري.

في التاسعة مساءً كان نبراس قد دخل محل السيد مرتضى للأدوات الاحتياطية للسيارات الواقع في منطقة (الكرادة) في بغداد.

كان السيد مرتضى عم نغم وهو شخص ذو علم وكياسة ولباقة.. وهو بمثابة أب ثانٍ لنغم..

دخل عليه نبراس محله فشاهده جالسًا خلف مكتب فخم وأمامه فنجان قهوة قد شرب نصفه وقد أمسك بيده سيكار من النوع الفاخر تتصاعد منه حلقات الدخان ويملأ عطره المكان.

كان يضع على رأسه كوفيه سوداء يخبئ بها صلعه وتعطيه مظهرًا أنيقًا.. تلك الكوفية التي كان الرجال في بغداد يعتمرونها في الخمسينيات والستينيات، فهي علامة مميزة لأهالي بغداد، وقد أستمر بعضهم في ارتدائها إلى وقتنا الحالي لما لها من تاريخ جميل ومظهر حسن، تلك الكوفية التي نسميها باللهجة العامية (السدارة).

دخل نبراس بثقة كبيرة وتصميم على الفوز بالمعركة:

- مساء الخير..
- أنا نبراس زميل نغم في الجامعة.
- أهلاً يا ولدي.. تفضل بالجلوس.. بماذا أستطيع أن أخدمك؟
- سيدي أنا سأحاول أن أشرح لك الموضوع وأتمنى أن تساعدني..

بدأ نبراس بالكلام عن حبه لنغم ورغبته الشديدة بالزواج منها، وأخبره بما قالته له من إصرار والديها على زواجها من ابن خالها فقاطعه الرجل قائلاً:

- اسمع يا بني... إني أرى أنك شاب ذكي وطموح ومتفهم.. حاول أن تستوعب ما سأقوله لك بهدوء وتعقل.. إن ابنة أخي نغم لم يجبرها أو يرغمها أحد على زواجها هذا.. بل كانت تعلم منذ الصغر برغبة ابن خالها بالزواج منها، ولم تعترض على ذلك يومًا.. ولم ترفض اليوم أيضًا. إنها قد وافقت على الزواج بإرادتها يا بني... صدقني.

خرج من المكان وهو يكاد يجن مما سمعه، فهو لا يستطيع أن يصدق أنَّ حبيبته كاذبة بامتياز. وإنها كانت تتلاعب به طيلة أربع سنوات... تعيش حلاوة تعلقه بها وتضمن الزواج من شخص ثري يحقق لها مستقبلاً مريحًا دون عناء.

لم ينم في ليلته تلك.. كان يتقلب على فراش من الجمر..
في الصباح راح يبحث كالمجنون عن مسدس لوالده كان يخفيه الأب في الخزانة، أخذه خفية ودسه في جيبه.
صباحًا رآها تقف أمام خزانة لها في رواق الكلية، ذلك الرواق الذي يحوي عدة دواليب خاصة للأغراض التي يحملها الطلبة، كانت تضع أغراضها لتتوجه إلى قاعة المحاضرات.
تأكد أنَّ الرواق خالٍ إلا منهما، وقف خلفها مباشرة ووضع فوهة المسدس في رأسها واضعًا يده اليمنى على الزناد وقد أغلق فمها بيده اليسرى.
كانت عيناه تائهتان كالمجنون، قال لها:

- سأفرغ هذا المسدس في رأسكِ الآن، لن تتزوجي غيري، أنتِ لي أنا يا نغم.. لي وحدي. كيف استطعتِ أن تكذبي عليَّ كل ذلك الوقت؟ لماذا تركتني أذوب فيك كل تلك السنوات.. قد رسمت

صورًا لوجوههم الجميلة... وجوه أطفالنا يا نغم.. كانت ألحاني التي كتبتها على النوتة الموسيقية تحكي قصة حبي لكِ... جنوني بكِ... أشواقي لكِ... كيف استطعتِ أن تدوسي بقدميكِ جمرات حبي التي لا تنطفئ؟ كيف أيتها الخائنة... كيف؟

كانت ترتعش كالسعفة بين يديه..
نظر إلى شفتيها، إلى صدرها.. إلى أنفاسها اللاهثة التي تجعل صدرها يعلو ويهبط.
ارتخت يداه.. أحسَّ برغبة في تقبيلها.. سقط المسدس من بين يديه.. وقال لها:

- أحبكِ!

لم تتفوه بكلمة.. ظلت صامتة تنتظر فرصة للإفلات من قبضته.
في لحظة واحدة استطاعت التخلص من بين يديه وخرجت تجري نحو ساحة الكلية، هربت منه إلى الأبد.
بعد خمسة أيام جاءت نغم مرتدية خاتم الخطوبة من ابن خالها، وبعد شهر واحد كانت قد تزوجت.

كل الأصدقاء الذين كانوا حول نغم ونبراس والذين عاشوا معهم تفاصيل قصة حبهما الكبيرة تفاجئوا بما فعلته نغم، وأصبحوا ينظرون إليها كخائنٍ لعوبٍ.
بكل صعوبة ومشقة حاول نبراس أن يعود إلى الجامعة بعد أن مرض لعدة أيام قضاها في السرير يصارع فيها خيبته وعذابه ورجولته المجروحة.

(14)

تخرج نبراس من الجامعة وهو في قمة اليأس والتعاسة.. يتخبط بين الاكتئاب والملل من الحياة، قرر أن يسافر خارج البلد، فلم يعد هناك ما يستحق أن يبقى من أجله.

جن جنون الوالد على حال ولده، قرر أن يفعل شيئًا ليريحه ويمنعه من أن يهاجر فاقترح عليه أن يتزوج من قريبة له.

اجتمع الأب والأم ووضعوا نبراسًا في وسطهما، حاولا الضغط عليه بكل الطرق لترغيبه في الزواج، ومن محاسن الصدف أنَّ تلك الفتاة التي عرضوا على نبراس الزواج منها كانت تكن له حبًا وتحاول أن تجذبه لها بكل طريقة.

في زخم المشاعر المختلطة والغريبة التي كان يشعر بها من وحدة واكتئاب لفقده من أحب بكل صدق وخيانتها له، وبين إغواء تلك الفتاة التي كان يشعر برغبة جسدية وانجذاب نحوها، ورغبة والديه الشديدة للزواج منها، رضخ لتلك الرغبة الرجولية الملحة التي يأمره جسده بها... وتزوج.

عاش سنوات زواجه الطويلة الهادئة بشكل روتيني ساكن، فقد كانت زوجته طباخة ماهرة وتسمع جيدًا لتلك العبارة التي تقول (أقصر طريق لقلب الرجل معدته).

عودته على طباعها وحياتها، فقد أصبح قلبه في طي النسيان، أقبر حبه وأهال عليه التراب وراح يقضي سنوات حياته في الليالي المفعمة بالرغبة الجسدية مع زوجته التي كانت غالبًا ما تثير المشكلات كي تتخلص من إلحاحه عليها وطلبه المستمر كل ليلة وطاقته الجنسية الكبيرة التي أتعبتها، فهي امرأة تعشق المطبخ وعمل الطعام وسطحية في مشاعرها ولا تعرف عن الزواج غير الأيام المتشابهة، بينما كان هو رجلاً دفن قلبه وراح يعيش الزواج بالرغبة والشبق؛ ليضيف لحياته معنى، معنى يثير الحرارة فيه؛ لأن الزواج دون حب كالأرض اليابسة.. قفار لا حياة فيها.

تتعاقب فيها الأيام المتشابهة.. تستنسخ الأيام نفسها.

كما تشرق الشمس كل يوم بصمت على قبور الموتى.. لا براعم تتفتح هناك.. ولا أزهار تستيقظ.

لن تسمع زقزقة العصافير في المقابر.. ولن ترى فراشات تحلق.

إنه الصمت فحسب.

هكذا كانت أيام نبراس... وهكذا كان يعيشها..

فثمة آلام لا تنسى إلا إذا كانت لدينا القدرة على تجاوز آثارها.

أصبحت لديه عائلة.. بنت وولد.. ظهر الكثير من الشعر الأبيض في رأسه مما زاده وسامة وجاذبية.

طيلة عشرين سنة لم يسمع عن نغم شيئًا ولم يرها، كان يحدث نفسه أحيانًا أنها قد تكون سافرت خارج البلاد.

(15)

(سأختبئ خلف معطفي الأبيض)

أحيانًا يحل خريف قلبك و أنت تعيش سنوات ربيع العمر.
حين تخونك الحياة، وتسرق منكَ الأيام ذلك الإنسان الذي تشعر أنه خلق لك،
فتأخذه منك وتهبه ببساطة ودون عناء لشخص آخر..
شخص لم يسكب الدموع وهو يحترق شوقًا، ولم يعرف طعم الانتظار ولم يذق مرارة الساعات وهي تمر ببطء على من يُمنّي نفسه بلحظة واحدة ليرى فيه وجه من يحب.
شخص لم يمارس طقوس الانتظار كعبادة يومية...
ما أقسى الحياة.. ما الذي ستخسره لو رسمت للمحبين نهاية جميلة..
لن يختل نظام الكون.. ولن تُغير الأرض مسارها أو تخفف من دورانها، لو احتضن كل قلب... قلبِ حبيبه وأكملا الطريق معًا.
ماذا لو كانت الحياة كريمة مع جمانة لمرة واحدة فقط.. وأعطتها نبراسًا؟

ألم تكتفِ من تعذيبها طوال خمس وعشرون سنة؟
ألم تكن حياتها عبارة عن حلقات متصلة من الحرمان؟
هبة واحدة من الحياة لن تزعج القدر..
مرة واحدة من السعادة لقلب جمانة لن تحدث خللاً في حركة الكواكب.. ولن تقوم في الأرض حرب عالمية ثالثة.
كم من الفرح كانت لتحصل عليه لو احتضنها نبراس كحبيبة له.. لو أمسك يدها وسارا معًا في رحلة الحياة الطويلة.
لو كانت هي من تقف بجانبه في ذلك اليوم مرتدية فستان الزفاف الأبيض..
ترى كم من الألم والحزن سينسيها؟
كم من الدفء سيجتاح قلبها الذي يرتجف بردًا؟
لكن كل شيء قد انتهى الآن.. صار نبراس زوجًا لامرأة أخرى.. امرأة لم تشقَ بحبه يومًا..
لكن يبدو أنَّ في حياتنا لا توجد صدف ولا أخطاء، بل هي مواقف عصيبة يتم منحها لنا كي نتعلم منها، وقد نشارك نحن في كتابة النص الذي قدر لنا وكتبته لنا الحياة، نفعل ذلك عبر اختياراتنا.. فخياراتنا هي من يرسم التفاصيل لحياتنا... تفاصيل لتصميم كبير صنعه لنا القدر، لكننا نحن من يملأ ذلك التصميم ليكتمل.

كانت الأفكار تدور في رأس جمانة والدموع تنساب بصمت لتغرق وجنتيها.. ما الذي بقي لديها هنا؟

حبيب لم يشعر بحبها يومًا.. وها هو قد اختار زوجة ورفيقة غيرها..

وعائلة ممزقة لم يضرها يومًا غياب جمانة ولم يسعدهم وجودها...

ووظيفة كطبيبة مبتدئة في بلد يرزح تحت وطأة الفقر بعد أن فرض عليه حصار اقتصادي وقاطعته كل الدول، فلا دخول ولا خروج للبضائع، ولا تطور أو تقدم لسنوات لا يعلم بها إلا الله وحده.

أخرجت جمانة دفتر مذكراتها من درج قديم بجانب السرير، وأمسكت بالقلم وراحت تدون بعض الكلمات:

عام 1990م تورط بلدي العراق بكارثة جلبت عليه بعدها كل اللعنات القريبة والبعيدة، عندما دخل غازيًا إلى الأراضي الكويتية، وأعلن ضمها إليه كمحافظة تضاف إلى الثمانية عشر محافظة من محافظاته.

وعلى إثر ذلك حلّت علينا لعنة العالم أجمع، فتشكل تحالف دولي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية شاركت فيه ثلاثين دولة مكتسبًا شرعية تامة بعد اعتماد مجلس الأمن قراره

والذي يسمح باستخدام كل الوسائل اللازمة بما فيها القوة العسكرية ضد العراق ما لم يسحب قواته من الكويت.
لكننا... لم ننسحب!
وبعد أن انتهت المدة التي أعطيت للانسحاب ولم ينسحب جيشنا بدأت الحرب.
إنه يوم السابع عشر من يناير عام 1991م، ذلك اليوم البغيض.. كانت الغارات الجوية تشن على بغداد وبقية المحافظات بمعدل ألف غارة جوية يوميًا.
ما زالت أصوات ارتطام الصواريخ وانهيار المنازل والبنايات في أذني... ما زلت أسمعها كأنها حدثت بالأمس فقط.
إنها حرب الخمس والأربعين يومًا... حرب الخليج الثانية....
إذ لا بُد لنا أن نبدأ بوضع ترقيم للحروب التي يدخلها العراق.. أولى وثانية وربما ثالثة من يدري، فنحن جيل الحروب والجثث التي ترقد في صناديق الخشب مغطاة بعلم العراق.
صار علم بلدي هو رمز للموت... لصندوق خشبي يحتضن الرجال.
لكن ليس بالضرورة أن يأتي الموت على من يربضون هناك في جبهات القتال..

فأحيانًا يحلو له زيارة الأطفال الخائفين والنساء المرعوبات من صوت المدافع وانطلاق القذائف، فراحوا يبحثون عن مخبأ ينامون فيه ظنًا منهم أنَّ الموت قد يضل طريقه إليهم.
لا.. لن يضل الموت الطريق أبدًا، فها هو عرف مكانهم بكل سهولة ودخل صاروخ موجه بكل دقة إلى نافذة ملجأ العامرية فأحرق أربعمائة إنسان كلهم من النساء والأطفال في يوم مشؤوم يوم الثالث عشر من فبراير من نفس العام... عام عاصفة الصحراء تلك، عام لم يعد بلدي المنكوب بعده كالسابق، كما لم أعد أنا ولم يعد قلبي كما كنا بالأمس.
خلال الحرب تلك كنت في السنة الرابعة من كلية الطب.
أّذكر جيدًا تلك الليلة المرعبة حيث كنت أغلق الباب على نفسي في غرفة الجلوس لأذاكر امتحان مادة الجراحة العامة، فقد كان موعد بدء الامتحانات مقررًا لنصف السنة الدراسية في يوم السابع عشر من يناير صباحًا.
ولكن قبل أن يطلع الفجر في تلك الليلة كانت طائرات قوات التحالف تدك بغداد دكًا بالقنابل والصواريخ، فاشتعل الليل نهارًا أحمرًا، فهرعت راكضة إلى حضن أمي في الغرفة الملاصقة وأنا أصرخ.
أغلقت جمانة دفترها وسرحت في ذلك الماضي المؤلم، فراحت تتذكر أيام الحرب تلك.

حيث دامت الحرب أربعين أو ما يقارب خمسَ وأربعين يومًا، أجبرت فيها القوات العراقية على الانسحاب من الكويت ودمرت القدرات الاقتصادية والعسكرية للبلد وقصف بأكثر من مائة ألف طن من المتفجرات بما في ذلك مئات الأطنان من ذخائر اليورانيوم المنضب.

ودمرت المدارس والمعاهد والجامعات ومراكز الاتصالات والبث الإذاعي والتلفزيوني وكذلك الجسور والسكك الحديدية، وتضررت أكثر من عشرين ألف وحدة سكنية وتجارية أهلية.

في تلك الليلة عندما بدأ القصف الجوي فجرًا على بغداد ليحطمها ويقطعها إربًا، كان كل من في البيت نيامًا عدا جمانة، حيث كانت مستغرقة في الحفظ لامتحان غدٍ، وعند سماعها لدوي القذائف ركضت فزعة نحو الحجرة الصغيرة:

- استيقظي يا أمي إنَّ بغداد تحترق.
- يا ويلتي... ما الذي يحدث يا جمانة؟
- أمي.. إنها طائرات قوات التحالف تقصف بغداد، فقد نفذت تهديدها بالضربة العسكرية إذا لم ينسحب جيشنا من الكويت.

- يا رباه... حرب أخرى.. حرب جديدة.. ألا يكفينا ما أصابنا لثمان سنوات من حربنا الملعونة تلك مع إيران، من بقي لنا يا جمانة. ابن عمك وابن خالك وأخواي الاثنان قد قتلوا في تلك الحرب، وشارعنا يكاد يخلو من الرجال راح كل شبابنا ورجالنا يا ابنتي، طحنتنا الحروب. لكن يا الله... ماذا عن أخيكِ يا جمانة، ماذا عن براء إنه لا يزال هناك مع الجيش في الكويت؟
- لكن يا أمي قد أعطوهم أمرًا بالانسحاب.
- أي انسحاب هذا يا ابنتي، قد فات الأوان الآن وانتهت المهلة، ألا ترين النار والطائرات فوق رؤوسنا.
- رحماك يا رب... ماذا لو قتل براء أيضًا.
- لا تقولي هذا يا أمي.. أرجوكِ أدعي له بالنجاة فكل شيء بأمر الله.. أرجوكِ يا أمي اهدئي قليلًا.

كان أحد أخوي جمانة يعمل في شركة من شركات التصنيع العسكري، حيث كان من يعمل فيها معفيًا من الخدمة العسكرية، وهو أخوها الأكبر الذي كان متزوجًا ويسكن شقة في حي قريب من منزل العائلة، لكن الأخ الثاني براء كان قد

جنـد مـع الجـيش كجنـدي احتيـاطي ملـزم بإكمـال خدمتـه العسكرية التي طالت بسبب الحروب.

ظلت جمانة وأمها متلاصقتين واحدة بالأخرى حتى ارتفعت الشمس وسط السماء وهن يرتعدن مع كل دوي وارتجاج، وكلما اقترب الصوت يشعرن أنَّ الضربة القادمة ستكون على بيتهم أو بيت جارهم وأنهما ميتتان لا محالة.

ومما زاد الرعب هو انقطاع التيار الكهربائي عن المدينة بالكامل؛ نتيجة تدمير محطات توليد الكهرباء وانقطع البث الإذاعي والتلفزيوني، فلم يعد أحد يعرف ما يجري ولم يكن هناك صوت يسمع سوى صوت الصواريخ التي تنفجر محطمة كل صرح ومبنى ومعلم من معالم بغداد.

خلال تلك الأيام كان أغلب الناس يتجمعون في بيت واحد، فبعضهم ترك بغداد هربًا من أن تضرب بسلاح كيميائي وخرج منها ليسكن عند أحد أقربائه في المحافظات أو أطراف بغداد، والذي لم يترك بغداد بقي في مكانه يرتعد خوفًا من مصير مجهول.

انتبهت جمانة من رحلة ذكرياتها الطويلة تلك وعاودت الكتابة مرة أخرى في دفتر المذكرات فكتبت بعض السطور:

بعد ظلام وعذاب انتهت حرب الخليج الثانية.. وصارت بغداد ركامًا..

وتوافدت الصناديق الخشبية المغطاة بعلم العراق بعدد يصعب إحصاؤه..

فمن وصل منه أثر يدل عليه في التابوت أعلن عليه الحداد وأقيم له العزاء، ومن استطاع الوصول من الرجال قاطعًا مسافات شاسعة سيرًا على الأقدام تحت القذائف ودخل بيته بعد أن كاد يفقد أهله كل أمل في رجوعه، تعالت لسلامته الزغاريد وجلس يقص على أهله وأقربائه قصص الحرب المرعبة.

أما من لم يعد سالمًا... ولم يعد أيضًا في صندوق يغطيه علم... ظلت أخباره في علم الغيب.. حيًا أم ميتًا... مات في الطريق أم جريح راقد في مكانٍ ما..

من لم يعد قالوا لذويه أنه يسمى مفقودًا.. فانتظروا عودته على أمل ما

ومن بين هؤلاء المفقودين كان... أخي براء.

اليوم أنا لم أبلغ الثلاثين بعد، فأنا لم أزل في أول سنوات عقدي الثالث لكني رأيت أيامًا وليال لا يمكن أن تنسى، تلك الأيام السوداء أثناء وبعد انتهاء حرب الخليج.

كانت أيامنا تمر ثقيلة مظلمة وفي أحد الأيام كانت الشمس قد أوشكت على المغيب وبدأت جميع النساء في حيّنا والأحياء المجاورة بإشعال الفوانيس استعدادًا لليل طويل، فبعد أن انتهت الحرب كان الظلام يعم بغداد وجميع محافظات العراق.

حتى الماء كان شبه مقطوعٍ ولا ينساب إلا من الحنفيات المنخفضة جدًا ضعيفًا مثل شعرة، فتملأ النساء قدورهن طيلة النهار بالماء كي تستعمله بقية الأسرة للاستحمام والشرب وطبخ الطعام.

صورة أشبه بصور الحياة قبل اكتشاف الطاقة الكهربائية والثورة الصناعية.

فمن يعيش في العاصمة بغداد كان كمن يعيش في قرية، في ظلام وضيق وانقطاع تام عن العالم الخارجي، لا إعلام ولا قنوات تلفزيونية أو إذاعية.. كل شيء قد دمر تمامًا.

لكن الناس في الأحياء كانوا يتناقلون أخبارًا عن جلبة كبيرة تحصل، شيء ما أشبه بالثورة أو الانقلاب أو الجنون.

فبسبب انقطاع البث الإخباري لم يعد أحد يعلم ما يجري على وجه التحديد.

لكن الأنباء كانت تتناقل بين الناس عن مظاهر لاضطراب وعدم استقرار تجتاح مناطق جنوب وشمال العراق، وفي

نفس العام المشؤوم وتحديدًا في شهر آذار والذي كان يصادف بالتقويم الهجري شهر شعبان.

قال أحد الرجال في الحي الذي يقع فيه بيتنا وقد كان شيخًا في السبعين من عمره أنه سمع من أقاربه الذين يسكنون في جنوب العراق أنَّ القصة بدأت حينما انسحب الجيش العراقي انسحابًا غير منظم من الأراضي الكويتية، وبعد أن دمرت آلياته من قبل القوات الأمريكية، فاضطر الجنود إلى العودة سيرًا على الأقدام إلى العراق، فقام أحد الجنود المتعبين والمرهقين من السير والجوع بإطلاق النار على تمثال للرئيس العراقي صدام، وانهال عليه بالشتائم والسباب وقد حدث ذلك في ميدان يسمى ساحة سعد في مدينة البصرة جنوب العراق، فثارت شرارة الانتفاضة على أثر ذلك وامتدت سريعًا لباقي المدن العراقية.

لم يكن أحد من أهل الحي يعلم يقينًا ما يجري، فكلٌ لديه أخبار من هنا وهناك، لكن الاضطراب كان سريع الانتشار فعمَّ محافظات الجنوب كلها والوسط وسرعان ما وصل إلى شمال العراق.

ولكي يحصل الناس على أخبار عن أبنائهم الذين لم يعودوا حتى بعد انتهاء الحرب كانوا يشدوا الرحال إلى مدينة البصرة كي يتحسسوا شيئًا أو نبأ عن مصير أولادهم.

لكن أجواء البصرة كانت مشحونة ومنتفضة ضد السلطة العراقية ودخان آبار النفط المحترقة يملأ الأجواء، فكان هياجًا شعبيًا سريعًا مخيفًا، حيث توجهت مجاميع كبيرة من الناس إلى مراكز الشرطة والمباني الحكومية ومعسكرات الجيش وقاموا بإخراج من فيها من السجناء والاستيلاء على مخابئ الأسلحة، ثم حدوث اشتباكات بين القوات العراقية والمنتفضين وانتقلت تلك الشرارة سريعًا إلى مدينة ميسان القريبة من البصرة، فكانت الناقلات العسكرية والسيارات العادية تنقل أخبار ذلك الهياج الشعبي من مدينة إلى أخرى فتعم الفوضى تلك المدن، ما بين مواجهات مع السلطة وبين نهب وإحراق وتخريب للمباني والمستشفيات والممتلكات العامة.

أذكر في إحدى الليالي وقبل أن يحل الفجر بساعة، كانت أمي جالسة قرب فانوس قاربت ناره على الخمود، وقد كانت تنتحب بصوت خافت وقلبها يتقطع على أخي براء الذي لم يعد حتى الآن ولم تصل أي أخبار عنه.

وهي في حالها تلك سمعنا باب البيت الحديدية الصدئة تفتح بقوة وصوت أقدام متثاقلة بطيئة تقترب من الباب الخشبي للبيت، ارتجفنا من الخوف والفزع وكتمنا أنفاسنا، خطر لنا

أنَّ أحد اللصوص قد اقتحم البيت الخالي من الرجال، فالدنيا مقلوبة والناس في هياج.
لكن صوتًا لجسم ثقيل كان قد ارتطم بالباب الخشبي للدار وكأنَّ شخصًا ما قد تهالك واقعًا عليه يصاحبه صوت أنين مؤلم، حاولت أمي أن تسير على أطراف أصابعها لتقترب من الباب وترهف السمع علّها تفهم ما يحدث.
فسمعت تمتمة غير مفهومة يتبعها صوت يقول:

- أمي... افتحي لي الباب... لا تخافي.. أنا براء!

لم تصدق عينا أمي الضعيفتان وقلبها المتعب وقع تلك المفاجأة.
فقد عاد أخي المفقود أخيرًا... عاد من كان في صفوف الموتى، وها هو أمامنا حي يرزق.
حاولنا أنا وأمي مساعدة براء على النهوض وسحبه إلى الداخل، فقد كان أخي على وشك أن يفقد وعيه من شدة الجوع والتعب، ملابسه مضرجة بالدماء وشعره أشعث ويلوث التراب وجهه وكل جسده.
قمنا بسحبه ووضعه على فراش وضعته له على الأرض، كانت أمي لا تزال تحتضن براء وتغمره بقبلاتها مختلطة بالدموع.

ثـم سـمعت صـوتها أخيـرًا يخـرج مـن بـين شـفتيها ضـعيفًا متقطعًا:

- بني قل لي هل تريد أن تستحم.. تأكل.. قل ماذا أحضر لك؟

فأجابها أخي:

- دعيني أنم فقط يا أمي.. لم أنم منذ خمسة أيام... فقط أعطوني ماء لأشرب وسأخبركم غدًا بكل شيء.

ظل براء ليومين كاملين طريح الفراش، يستيقظ ليأكل بعض اللقيمات ثم يغط في نوم عميق ولم يكن يكلم أحدًا، بينما كانت أمي كعادتها تجلس بجانبه تنظر إليه وتبكي بكاءً خافتًا، فهي بحدس الأم تشعر أنَّ أخي ليس على ما يرام، فهو في ذهول تام لا يتكلم وحين يصحو قليلًا يظل يحدق في السقف ثم تنساب دموعه على وجهه كأنه يسترجع ذكرى لشيء مؤلم.

بعد مرور سبعة أيام استرجع براء صحته وعاد إلى الواقع فجلس يقصّ علينا رحلة انسحاب الجيش والجنود وكيف وصل إلى بغداد في تلك الليلة:

سألته أمي بعد أن نفد صبرها من سكوته الطويل:

- أخبرني يا ولدي ماذا حدث لكم.. فنحن هنا منقطعون عن الأخبار ولا نفهم ما يجري؟

فتكلم براء و قص علينا ما حدث:

- إنها كارثة حقيقية يا أمي، فقد تعرضت قطعاتنا العسكرية المنسحبة إلى مذبحة بسبب القصف الجوي لقوات التحالف، فكنا ننسحب على غير هدى سيرًا على الأقدام بين الجثث المتناثرة هنا وهناك، رفيقاي اللذان كانا معي تقطعت أوصالهم أمامي، لقد رأيت من الصور المرعبة ما لا يتحمله قلبك المتعب إذا ما قصصته عليك، من نجا منا كان يسير عائدًا إلى مدينة البصرة ومنها إلى ميسان، وقد كان الجوع و الظمأ يكاد يقتلنا، نركض أحيانًا ويجر بعضنا بعضًا أحيانًا أخرى ونحن نسير في تلك المدن التي كانت في ثورة وانتفاضة ضد نظام الحكم حسب ما كنا نسمع منهم أثناء مرورنا فيها. ثم بعد أن أوشكنا على الموت أنقذنا الله بمرور شاحنة كبيرة نقلتنا إلى هنا حيث وصلت إليكم في تلك الليلة. رفعت أمي كلتا يديها إلى السماء وهي تنادي بصوت عال:

- رحمتك ورأفتك بنا يا الله... لم يبقَ لدينا رجال في هذا البلد... قد سحق الموت والحرب أبناءنا، يا مجيب الدعاء ارحم قلب كل أم يتقطع، وكل طفل يتيم تحت سمائك يا الله. فأمنت أنا على دعائها ومسحت وجهي المبتل بالعرق والدموع والدخان المنبعث من الفانوس المشتعل الموضوع في وسطنا. وبعد أن انتهت الحرب وعاد الجميع إلى المدارس والجامعات بعد أن قامت الدولة بترميمات مؤقتة في تلك الأماكن التي تحطمت بالقصف أو بالتلف إثر ذلك الفوران الشعبي والذي سمي بالانتفاضة الشعبانية من قبل مؤيديه، بينما أطلق عليه نظام الحكم العراقي اسم صفحة الغدر والخيانة دلالة على الهياج غير المبرر من قبل جماعات مسلحة اقتحمت المباني والمؤسسات وحاولت تحقيق انقلاب تام على نظام الحكم والذي أخمدته السلطة باستخدام السلاح والمواجهات العنيفة. عدت بعدها إلى جامعتي لأكمل السنة الدراسية، لكن تحت ظروف جديدة وسياسة دولية جديدة تم فرضها على البلاد بعد تلك الحرب. فقد دخل البلد تحت حصار دولي خانق، وجوع يضربه من شماله إلى جنوبه. إنهار

خلاله الاقتصاد العام.. وازداد الفقراء فقرًا. تخرجت من الجامعة بعد سنتين من تلك الأحداث، واستلمت عملي في أحد مستشفيات بغداد، تلك المستشفيات التي كانت تفتقر إلى أبسط المتطلبات الصحية من أجهزة ودواء. فأصبح العراق البلد المغضوب عليه وكأنه أصيب بسرطان خبيث مستعصٍ على العلاج، مما أجبر أغلب أبناء البلد إلى الهجرة لدول الجوار والمهجر بحثًا عن الأمان والحياة والتطور. وفوق عذابنا والعوز الذي كان ينهش بيوتنا، أنا الآن من بين الشريحة من المواطنين الذين فرض عليهم قانون المنع من السفر. قانون يمنع من يحمل شهادة الدكتوراه من أساتيذ الجامعات والأطباء من أن يهاجر خارج العراق، ولو تجرأ أحد وقرر السفر فسيجد نفسه في قعر السجون مع المجرمين والسارقين. أُصدر هذا القانون كي لا يخلو البلد من أصحاب الشهادات العالية والذين كانوا يعملون لثمان ساعات متواصلة في كل يوم ثم يتقاضون فتات من أوراق نقدية لا تكفي لشراء طعام ليوم واحد. هذا ما نعانيه في وطننا، ظلم وجور وتقييد للحريات وازدراء للعلم وإذلال للعقول، فحتى يكمل الطبيب

المبتدئ مشوار حياته العلمية كي يصل إلى مرحلة تمكنه من أن يدير عملاً خاصًا وعيادة خاصة، لا بُد له أن يقضي ثمان سنوات على الأقل في إكمال التدريب والدراسات العليا، وخلال تلك الفترة ليس له من أجرٍ سوى راتبه الذي لا يسد جوع يوم واحد. فكيف يمكن أن نعيش في بلد كهذا دون أن نموت جوعًا. أو أن نسلك طريقًا آخر فنصبح لصوصًا أو منحرفين. فإما أن تتخلى عن علمك وضميرك كي تعيش على ألم الفقراء والمحتاجين، وإما أن تهرب خارج البلاد بمغامرة لا تعرف نهايتها. إما تكون نهايتها النجاة والوصول إلى أقرب بلد نستطيع أن نعمل فيه بما نحمل من شهادة لنتقاضى أجرًا يتناسب مع حياتنا وساعات عملنا ونبدأ حياتنا هناك مغتربين يقتلنا الحنين لتراب حرمنا منه بعد أن أهدرت فيه قيمتنا وعلمنا، وأما أن يتم القبض علينا من قبل أول ضابط في نقطة التفتيش الحدودية وهو يدقق الجواز ويشك في أنه قد يكون جوازًا مزورًا، ويخمن من حدسه البوليسي بأنَّ الذي أمامه هو طبيب أو أستاذ جامعة هارب من عمله وعندها سنرمى لنتعفن في

السجن وننسى كل تلك السنوات من حياتنا التي قضيناها نكافح كي نصبح شخصًا ذا علمٍ ومكانةٍ.

أغلقت جمانة دفتر مذكراتها بعد أن نفدت منه الأوراق، فقد ملأتها كلها بعذابات لم يتسع لها صدرها فنثرتها على الورق، ثم مسحت دموعها المالحة التي أغرقت وجنتيها الشاحبتين وتساقطت لتبلل خصلات شعرها البني المتناثرة على الوسادة، فمنذ يومين وهي لم تفارق سريرها الضيق في غرفتها في بيت مخصص لسكن الطبيبات في مستشفى (اليرموك)، تلك المستشفى التي كانت تعمل فيها كطبيبة مقيمة قد تخرجت منذ أربعة أشهر ولا زالت أمامها أشهر طويلة لتقضي مدة العمل المفروضة على كل طبيب تخرج حديثًا ليكمل تدريبه، ثم ينتقل بعدها ليمارس العمل في أحد النواحي البعيدة في محافظات العراق وبنفس الأجر الذي يتقاضاه هنا، أجر لا يسد رمقًا ولا يسند فقيرًا.

مدت يدها صوب طاولة كانت بالقرب منها قد وضعت عليها وجبتها من الطعام الذي توزعه المستشفى على الأطباء المقيمين تحت التدريب، كانت عبارة عن رغيف خبز مصنوع من طحين متعفن تثير رائحته الاشمئزاز في النفس وطبق من

البطاطس المخلوطة بالخضروات والتي قليت بزيت منتهي الصلاحية.
كانت تلك الوجبات تقدم إلى المرضى وكذلك إلى الأطباء الذين يقضون أيامهم هناك بحكم عملهم، وجبات رديئة متعفنة لا تصلح حتى كوجبة للبهائم في الحظيرة.
قلبت رائحة الطعام السيء معدة جمانة فأبعدته عنها واكتفت بشرب قدحًا من الماء لتسد جوعها.
وقع نظرها على مجلة كانت إحدى الطبيبات قد تركتها في الغرفة، فسحبتها بيد مرتعشة ضعيفة وراحت تقلب أوراقها دون أن تقرأ شيئًا، كان في أحد الصفحات صورة لصقر عجوز وقد كتب تحت الصورة عنوان لمقال (كيف تولد من جديد)،
شدَّ عنوان المقال جمانة، فهي بالفعل بحاجة لأن تولد من جديد.
كان المقال يتكلم عن حياة الصقر وغرابة الأحداث في حياته، فالصقر قد يستطيع أن يعيش لسبعين سنة، لكنه عندما يبلغ الأربعين من عمره سيبدأ بالهرم، فتفقد أظافره مرونتها بفعل الشيخوخة ولن يتمكن من الإمساك بالفريسة.
كما أنَّ منقاره يصبح شديد الانحناء وريشه يلتصق بصدره ويكون من الصعب عليه التحليق؛ لثقل وزن جسمه، فيكون

أمامه خياران.. أما أن يستسلم ويموت جوعًا أو يتخذ قرارًا شديد القسوة والصعوبة كي يبدأ من جديد.
فحتى يعيش لسنوات أخرى عليه أن يحلق إلى قمة الجبل ويعيش هناك لمائة وخمسين يومًا يقاسي فيها العذاب والألم، فيبدأ بضرب منقاره المعقوف بصخرة قوية حتى يكسره ثم ينتظر حتى ينمو من جديد، بعدها يقوم بضرب مخالبه بالصخرة ليكسرها، وينتظر الليالي والأيام بصبر كي تنمو له أظافر جديدة حادة ومرنة، بعدها يقوم بنتف ريشه كله، ويستمر في الانتظار حتى يكتمل نمو الريش، عندها يكون قد ولد من جديد صقرًا قويًا فيحلق راجعًا إلى مكانه السابق ويبدأ رحلته ويتمكن من العيش لثلاثين سنة أخرى.
لمعت الدموع والحماسة في عيني جمانة بعدما قرأت تلك الكلمات، ورفعت رأسها ونظرت إلى سقف الغرفة العالي.. همست لنفسها بكلمات..
(كي نولد من جديد... لا بُدَّ أن نغير حياتنا... حتى لو كان هذا التغيير صعبًا وقاسيًا... لكنه سيجعلنا نستمر بحال أفضل وحياة أقوى).
وتذكرت كلمات قرأتها يومًا لأحد الكتاب:
(كل عام أعيشه أقتنع أكثر أنَّ ضياع الحياة يكمن في الحب الذي لم نمنحه, والقوى التي لم نستعملها، والتعقل الأناني

الذي لم يخاطر بشيء والذي كي يتجنب الألم فوت السعادة أيضًا، فلا يمكن من أن يصبح أحدًا أفقر على المدى البعيد لو أنه استخدم لمرة واحدة جملة أطلق العنان لنفسك).
قالت جمانة بصوت عال:

- حسنًا.. سأطلق العنان لنفسي.

أحيانًا تترك فينا الحياة آثار وندوب نفتخر بها؛ لأنها آثار المعارك التي خضناها وهي الشاهد على عذاباتنا وعلى المكافأة التي نلناها نتيجة تخطينا تلك المعارك وانتصارنا فيها.
كانت فكرة السفر خارج العراق قد أخذت حيزًا كبيرًا من تفكيرها.. ستحسم أمرها على الهرب والسفر.. لتبدأ هناك من جديد.. وأيًا كانت العواقب...فلا بُد من المجازفة...
إنَّ الحياة مثل فلم مثير ونصف المتعة هي ألا تعرف ماذا سيحدث، ففي الحياة أكثر ما يمكن أن تتوقعه هو اللا متوقع.
الحياة رحلة مغامرة وهي مرنة جدًا لا تسير أبدًا مثلما نتوقع أن تسير عليه، وهنا تكمن المتعة.
فحتى الصعاب والنكبات التي نمر بها هي متعة كبيرة تضيف لحياتنا الإثارة وتضفي عليها فعل أفلام (الأكشن) التي تجعلنا نصرخ من شدة الحماس.

فعندما نفقد أحلامنا وحبنا ويكون مستقبلنا مظلم.. سنشعر أننا فقدنا كل شيء وليس هناك المزيد لنفقده... عندها سنتوقف عن أن نكون على ما كنا عليه سابقًا أو ما نحن عليه اليوم... عندها فقط نستطيع أن نبحث عن أنفسنا ونعيد تشكيلها من جديد.

فقد يكون الجرح أحيانًا نافذة مشرعة كي يدخل منها النور ويتغلغل داخل الروح ليغسلها ويمنحها قوة وبريقًا ما كانت لتحصل عليه لو لا الألم والجراح.

يجب أن يكون لدينا ثقة وإيمان كبير بالحب الذي يكنه لنا منشئ كل هذا الخلق.

(16)

كان لجمانة صديقين مقربين في المستشفى الذي كانت تعمل فيه.

مها وأيمن.

فثلاثتهم تشغلهم الأفكار والطموحات نفسها.

مها فتاة رقيقة الشكل والمشاعر... ذات بشرة بيضاء شفافة وشعر أشقر غامق، تخبئ عينيها الخضراوين الجميلتين خلف نظارات طبية رقيقة.

كانت تسبق جمانة بسنة واحدة، لكنهما كانتا تتشابهان في الكثير من الأفكار والأحلام.

قررت جمانة أن تناقش فكرة السفر والهروب معهما بسرية تامة فلو اكتشف أحد تلك الفكرة لوشى بهم حالاً ووضعوا تحت المراقبة.

لم تجرؤ مها على اتخاذ ذلك القرار لأنها تزوجت حديثًا وزوجها يرفض فكرة السفر والهجرة، بينما كان أيمن شديد الحماس للفكرة، فاتفق هو وجمانة على وضع الخيوط الأولية لخطة الهرب.

أول عقبة كانت تواجه سفر جمانة هي إيجاد (محرم) فالدولة تمنع أي امرأة دون الخامسة والأربعين من العمر من السفر وحدها دون محرم.

مشكلة كبيرة كيف لها أن تحلها وهي وحيدة، قد توفي والدها منذ زمن بعيد وأخواها قد تزوجا، حيث تزوج براء بعد أن تخرجت جمانة من الجامعة، أي بعد أن انتهت الحرب بسنتين واستمر بالسكن في بيت العائلة بعد أن قام ببناء حجرة صغيرة في باحة الدار الوسطية وألصق جدرانها بجدران غرفة المعيشة؛ كي يسكن فيها هو وزوجته، ولا ندري هل فعلًا الطيور على أشكالها تقع أم هو سوء حظ جمانة بأن تكون زوجة أخيها نسخة مكررة منه، نفس الروح الخبيثة وقذارة اللسان وحب الذات المفرط، فأمست زوجة الأخ تلك سوطًا جديدًا يلسع جمانة في كل ساعة تأتي فيها للمنزل كي تزور أمها أو تأخذ بعض حاجياتها لتعاود بعد أن تقضي يومًا واحدًا في المنزل لتعاود الذهاب إلى المستشفى حيث تنتظرها الأعمال والمناوبات هناك، فلم يبقَ شبرًا في البيت إلا واستولت عليه زوجة أخيها بكل صلافة ووقاحة، حتى دولاب ملابسها لم يسلم من يد تلك المرأة، فقد قامت برمي ملابس جمانة خارج دولاب الملابس القديم ووضعت

بـدلها حاجياتهـا وملابسـها التـي لـم يعـد يتسـع لهـا دولاب ملابسها الخاص.
لـذا اختمـرت فكـرة السـفر والهـروب فـي عقـل جمانـة لعـدة أسباب قد اجتمعت لتفسد عليها حياتها في بلدها فراحت تفكر في حل لمشكلة (المحرم) تلك.
إذن لا بُدَّ لها من إيجاد رجلٍ ينتحل صفة الزوج كي تتمكن من الهرب.
تبادرت إلى ذهنها فكرة مجنونة ولم تتوانَ في قصها على أيمن ليساعدها، اقترحت عليه جمانة أن يتزوجا هي وأيمن زواجًا على الورق فقط، ليكون لها محرمًا أمام القانون فتستطيع أن تعبر الحدود ثم ينفصلا هناك.
كان أيمن بمثابة أخ لجمانة وصديق عزيز وهي كذلك، وكان يعلم كل شيء عن معاناتها مع أسرتها وقصة حبها اللعينة.
لذا وافق على فكرتها كي يساعدها على الخلاص.
أجرى أيمن اتصالاته سريعًا وبسرية تامة ليحاول أن يستدل على شخص يقوم بعمل جوازين له ولجمانة يضع مهنة أعمال حرة لأيمن وربة بيت لجمانة بدل مهنتيهما كطبيب وطبيبة كي يستطيعا الهرب، مقابل مبلغ من المال وهذا ما كان يفعله كل الأطباء وأساتيذ الجامعات الذين منعهم القانون من السفر في ذلك الوقت.

استطاع أيمن أن يتمم موضوع الجوازات وتحدد موعد السفر.
حزما أمتعتهما في حقيبة تحوي ثياب الصيف والشتاء.
لم تخبر جمانة أمها بكل ما تقوم به، لأنها كانت متأكدة أنَّ أمها المسكينة لا يمكنها أن تفهم الأسباب التي دفعت جمانة للتصرف على هذا النحو أبدًا.
يقول (فريدريك فاوست):
هناك عملاق داخل كل شخص وحين يصحو هذا العملاق تحدث المعجزات.
حزن جمانة وحبها الضائع وعائلتها الممزقة وإصرار أيمن على البحث عن مستقبله في الطب جعل قلبيهما صلبين مثل الفولاذ وأيقظ العملاق داخلهما فقررا أن يواجها الخطر أيًّا كان ما يحدث بعدها.
يبدو أنَّ طريق النجاح يبدأ عندما نكون صادقين مع أنفسنا... نحمل لها التقدير والاحترام... ولا نرتدي الأقنعة أو نكون على غير طبيعتنا كي نرضي الآخرين أو لنتلاءم مع عادات صنعوها هم بأيديهم وقالوا إنها قواعد أساسية للعيش، فليس

هناك قواعد حقيقية سوى الصدق مع النفس والفطرة التي خلقنا عليها.

فالنجاح هو أن نعيش حياتنا بطريقتنا الخاصة.. بقناعاتنا نحن.. أن نحقق أسطورتنا الشخصية... أن نخلق لنفسنا الحياة التي نختارها.. عندها فقط سنكون خلاقين.

علينا أن لا نعيش الحياة التي اختارها لنا الآخرون... بل أن نعيش على حقيقتنا... وحقيقة قلوبنا... عندها فقط سنكون من المتنورين وأقوى من كل قوى في الطبيعة.

(17)

كان أيمن وجمانة صباحًا في (طريبيل) تلك النقطة العراقية الحدودية للانطلاق نحو عمان، كان قلباهما يخفقان بسرعة من شدة الخوف، فلو افتضح أمرهما وتعرف أحد عليهما بصفتهما طبيبين لكان مصيرهما السجن دون أدنى شك.
في نقطة تفتيش الجوازات وتدقيقها أطال الضابط المسؤول النظر إلى جمانة فكاد قلبها يقع من شدة الخوف، خارت قواها وأحست أنَّ ساقيها مثل خيط رفيع لا يقويان على حملها، لكنها حاولت التظاهر بالسيطرة على الموقف.
قال لها الضابط:

- هل أنتِ متزوجة؟
- نعم.
- ما هي مهنتكِ؟ هل تعملين؟
- لا.. قد أكملت دراستي ولم أتوظف.
- ما هو سبب سفركما أنتِ وزوجك؟
- لا شيء.. سياحة فقط.

كان الضابط يسأل ويدقق النظر في عيني جمانة كي يتبين صدق الإجابة، وتلك كانت الطريقة المتبعة في نظام أمن الجوازات في النقطة الحدودية كي يتم التعرف على الهاربين والممنوعين من السفر وأصحاب الجوازات المزورة.
ختم الضابط الجواز لجمانة وأيمن، وأكمل الإجراءات الباقية بهدوء.
مرت ساعات الخوف بسلام وركبا الحافلة الذاهبة إلى عمان في رحلة الخلاص وبداية حياة جديدة، فلم يكن السفر آنذاك إلا برًا.. لا توجد مطارات ولا طائرات تقلع في بلد قد عوقب بفرض حصار عليه نتيجة دخوله إلى الكويت واحتلالها كونها أرضًا تابعةً للعراق وليس دولة مستقلة.
دومًا يخطط القادة وتدفع الرعية الثمن... لم يجُع الحكام ولم يتعرَ أبناؤهم في الحصار المفروض على البلد... بل جاع الناس... ومات الأطفال من قلة الدواء وتردي الأوضاع الصحية والمعيشية، واندفع البلد عشرات السنوات إلى الوراء وسقط في بئر عميقة وجهل وظلمات.
عند وصول أيمن وجمانة إلى عمان سألا عن أنسب مكان ليقيما فيه، فدلهما رجل من المسافرين معهم في نفس الحافلة على فندق متواضع في وسط البلد.

وسط البلد هو مركز عمان التجاري والاقتصادي القديم، وهو من الأماكن المزدحمة جدًا والتي تعجُّ بالناس والسائحين من كل مكان.

قضيا هنالك عدة أيام يسكن كل واحد منهما في غرفة منفصلة فقد حافظ كلاهما على الاتفاق بأن يكون زواجهما شكليًا إلى أن يصلا إلى بلد يستطيعا العمل فيه.

كان أيمن يعرف عن حال جمانة كل شيء فهو صديقها المقرب والأخ الذي عوضها الله به عن أخويها العاقين.

فكان يواسيها ويشد من أزرها كأنها أخته.

وسط البلد في عمان منطقة تحيطها الجبال الشاهقة، جبل القلعة وجبل الجوفة وهي منطقة ضيقة يشق فيها (شارع السلط) طريقه كالنهر وتصطف على جانبيه المقاهي والمحال التجارية والبازارات، فكان أيمن وجمانة يخرجان نهارًا للتعرف على المدينة خلال مكوثهما فيها، كي يتعرفا على عمان وأيضًا ليستطيعا قضاء الوقت المفروض عليهما فيها قبل أن يبدآ رحلتهما التالية.

فذهبا لزيارة المدرج الروماني ومتحف التاريخ الروماني والساحة الهاشمية، وقضيا ساعة في المكتبة الوطنية.

طلبت جمانة من أيمن أن يذهب معها لزيارة الأسواق القديمة في تلك المنطقة، كانت تنظر لما حولها ولرحلتها

تلك كأنها ألس في بلاد العجائب، فهي تريد أن ترى كل شيء وتتعرف على كل مكان تمر به.
ذهب معها إلى سوق البخارية وسوق السكر.. مشيا حتى أنهكهما التعب.
كان سوق البخارية يقع مقابل المسجد الحسيني الكبير وهو سوق جميل يمتزج فيه عبق الماضي والحاضر، كانت واجهات المحال تتزين بالبضائع المتنوعة من التحف الخزفية والمنسوجات القديمة المطرزة والتحف المصنوعة من الخيزران والصلصال.
في ذلك الوقت من النهار كان الحاج سليمان صاحب محل العطارة يجلس عند باب محله يأخذ استراحة قصيرة ويسحب الدخان من أركيلته التي وضع فيها المعسل بطعم الليمون والنعناع، فحانت منه التفاتة إلى السائحين الغريبين، فقد كان واضحًا عليهما الانبهار والدهشة، فهما لم يسافرا قبل اليوم إلى أي مكان، فكانا ينظران إلى كل ما حولهما بعيني السائح ويقلبان البضائع دون أن يشتريا شيئًا، اقتربت جمانة من محل الحاج سليمان تتفحص أنواع الصابون والزيوت العطرية والتوابل، فبادرها الحاج بالسؤال:

- أهلًا بكِ يا ابنتي... تفضلي استريحي قليلًا من تعب التجوال في السوق.

طلب الحاج سليمان من الصبي الذي يعمل لديه في المحل أن يحضر كرسيين وفنجانين من القهوة للزائرين الغريبين.
بادره أيمن بالشكر قائلًا:

- شكرًا لكَ يا حاج.. كرم ضيافتك تشعرنا أننا في بلدنا.
- لا تشكرني يا ولدي، من يعمل خيرًا سيرده الله إليه يومًا، فهذه الدنيا تدور وتظل ترد إلينا كل خيرٍ وكل سوء، إنه قانون الحياة يا بني.

قضيا ساعة في ضيافة محل الحاج سليمان تأخذهما الأحاديث الشيقة عن السوق وتاريخه العريق، فقص عليهما الحاج سليمان قصة تاريخ سوق البخارية بعد أن طلب منه أيمن أن يخبرهم عنه.

- ما قصة اسم هذا السوق يا حاج، ولماذا يسمى سوق البخارية؟
- هذا السوق القديم يا ولدي كان محاطًا بالبساتين الخضراء الجميلة، تلك البساتين الرائعة التي كانت

تنتشر على طول جنبات سيل عمان، فقد كان الماء يجري فيه بغزارة ودون انقطاع، حيث أنَّ المياه تنبع من تلك العيون من وادي عبدون ومنطقة رأس العين. كانت أعمدة المصابيح قديمًا تضاء بمادة الرماد المبللة بالكاز فتضيء شارع الملك طلال الذي يمتد من باب قصر رغدان إلى أن يصل ساحة المسجد الحسيني. كم من الاحتفالات كانت تقام هنا ويرقص فيه الناس الرقصات الشعبية. يقال إنه سمي بهذا الاسم نسبة إلى تجار هاجروا من مدينة بخارى من أوزبكستان وجاءوا إلى هنا بحثًا عن الأمان في الدول الإسلامية يا ولدي.

- بلادكم جميلة يا عم.. شكرًا لضيافتك.. نستأذنك الآن فلا بُد لنا من العودة إلى الفندق فقد تعبت زوجتي من التجوال على قدميها، فمنذ خمس ساعات ونحن نتجول في الأسواق.. دُمتَ بخير.. وفي أمان الله.
- في أمان الله يا ولدي.. وألف سلامة لكِ يا ابنتي.. فالتعب والمرض واضح عليكِ، إنَّ وجهكِ شاحب.. أوصيكِ بأن تسقيها بعض من الـ (زهورات) يا بني.. سيريحها ويعيد إليها النشاط.

عادا إلى الفندق وقضيا تلك الليلة فيه فقد كان ينتظرهما صباحًا سفر آخر.
فهو قرار لا بُد لهما من اتخاذه كي تبدأ رحلة البحث عن عمل.

(18)

قررا أن يتجها إلى ليبيا، الأحوال المعيشية فيها كانت أفضل ومن السهل أن يجدا فرصة للعمل هناك، وقبل أن يقررا الهجرة من العراق قام أيمن بالاتصال بعدة أصحاب له تناثروا هنا وهناك خارج البلد، كان أحدهم في اليمن وآخرون في ليبيا ومجموعة في كندا، جمع كثيرًا من المعلومات عن أسرع الطرق التي تمكنهم من أن يجدوا عملاً في أحد المستشفيات فأخبره سامر وهو أحد أصدقائه الذي تخرج قبله بدفعتين أن يتجه أما إلى اليمن أو إلى ليبيا فتلك الدولتين بحاجة إلى أطباء للعمل في مستشفياتهم، وحدد له مدينة غريان، تلك المنطقة الجبلية في ليبيا، قال له أنها من أجمل المدن الليبية وستجد فيها عملاً ينتظرك.

قطعا رحلة في سيارة أخرى تتجه من عمان إلى ميناء العقبة، وعند وصولهما إلى الميناء جلسا مع حشد من الناس على الرصيف طوال الليل بانتظار عبارة تنقلهما إلى مصر.

كان الناس على رصيف الميناء خليط من الأطفال والنساء والشباب.. كل واحد منهم مسافر لسبب ما.. فمنهم من ذهب يبحث عن عمل مثل جمانة وأيمن، ومنهم من كان

ذاهبًا للعلاج خارج البلد بعد أن أصبحت المستشفيات خالية من أبسط العلاجات.
قضى الجميع الليل بأكمله على رصيف الميناء.
وصلت العبّارة لتنقل المسافرين الذين قد أنهكهم التعب والقلق وكان بينهم أطفالٌ وعجائز قد أرهقهم السفر المتعب برًا.
عند جلوس جمانة وأيمن في تلك العبّارة والتي تشق طريقها نحو ميناء مصري، سرح كل منهما بخياله بعيدًا وهو يتأمل الجبال بمنظرها الخلاب على الجانبين.
كان أيمن يفكر في والدته ووالده ويتذكر دموع أمه ساعة الوداع، فقد فضلت أم أيمن سفر ابنها وفراقه على أن يبقى محطم الأحلام في بلد يمضي من حرب إلى حصار أو إلى حرب أخرى.
بينما كانت جمانة تستعيد قصة الصقر وكيف اختار أن يتألم كي يولد من جديد.
همست لنفسها (إذا أراد الرامي أن يرمي سهمه بعيدًا فعليه أن يشد القوس للآخر)
التفت إليها أيمن:

- بمَ تفكرين يا جمانة.. هل أنتِ خائفة من رحلتنا نحو المجهول تلك؟
- على العكس تمامًا... أنا أشعر أنني الآن أقوى من أي وقت مضى. لا بُد لنا من المغامرة يا أيمن.. وإلا سنبقى نراوح مكاننا بين الحفر. ألم تسمع بتلك الانفجارات التي تحصل داخل النجوم؟
- بالطبع سمعت.. لكن ماذا تريدين أن تقولي؟ إنَّ تلك الانفجارات في باطن النجوم هي من يجعلها أكثر لمعانًا وجمالًا.. المغامرة والمرور بالمخاطر من أجل حياة أخرى هي من سيجعلنا أقوى وأفضل. لكن نحن ذاهبون إلى الفراغ يا جمانة... لا ندري هل سنحصل على عمل أم سنضطر أن نعود خائبين ويكون مصيرنا السجن.. ألستِ خائفة من ذلك المجهول؟
- لا.. يجب أن لا نخاف من أي أمر.. سنبذل كل ما في وسعنا لنجد عملاً ولن نعود مهما حصل. أنت تعلم يا أيمن أنَّ لا حياة لي هناك.. ولن أكون كالغزال الشارد.. ألتفتْ إلى الوراء خوفًا من الأسد المفترس الذي يجري خلفي فأضيّع بذلك نفسي

بالرغم من أنني أسرع منه في الجري.. يجب أن نركز فيما ينتظرنا... وأن ننظر دومًا إلى الأمام.

- ما أُقواكِ يا جمانة.. إنَّ جمال روحكِ يعطيني شجاعة وأملًا لأبدد به خوفي وقلقي من المستقبل.

وصلا بعد أن قضيا نهارًا كاملًا في تلك العبّارة.

نزل الجميع في صحراء سيناء أو ما تسمى بالصحراء الشرقية، وهناك كان يُسمح للمسافرين بالتجوال قليلًا وتناول الطعام والاستراحة في القرى المحيطة بالمنطقة.

كانت الرحلة طويلة ومضنية، استقل المسافرون بعدها حافلة أخرى لتقلهم إلى القاهرة.

في القاهرة كان النظام المتبع من قبل طاقم العبارة أن يقوم المسافرون بجولة قصيرة في الأهرامات ليشاهدوا أحد العجائب السبعة، أهرامات مصر الرائعة.

فلا يمكن لأي مسافر أن يمر بمصر دون أن يرى ذلك الصرح الفرعوني العملاق.

تمتع أيمن وجمانة بمشاهدة الأهرامات وركوب الجمال هناك.. فعادت لجمانة بعض من طفولتها الضائعة وابتسامتها التي سرقها الزمن.

بعد أن أكمل المسافرون جولتهم في الأهرامات تم نقلهم بمركبة أخرى إلى نقطة حدودية وهي منطقة (السلوم)على ألحدود المصرية.

ومن السلوم تم نقلهم بالباص إلى نقطة حدودية ليبية تسمى (مساعد) ومنها إلى طرابلس.

نزل الجميع في طرابلس منهكي القوى ممتلئين بالأحلام.

(19)

(مدينة الزيتون واللَّوز)

توجه أيمن وجمانة إلى مدينة جبلية جميلة في الأراضي الليبية تدعى (غريان) تقع في الجزء الشمالي الغربي من ليبيا على قمة الجبل الغربي.

نسيمها عليلاً وتحفّها الجبال ذات الألوان الرائعة، وتتشابك فيها أشجار الزيتون واللوز والتين والبرتقال.

فعلى بُعد 75 كم جنوب مدينة طرابلس ترتفع فجأة من السهول سفوح جبال غريان في مشهد رائع ذي طبيعة جبلية خلابة وستشاهد ذلك الطريق الملتوي والمصمم بشكل دقيق ليقودك إلى أعلى قمة الجبل باتجاه مدينة غريان.

أهالي المدينة من أصول أمازيغية (جبلية) وتشتهر مدينتهم بجودة زيتها وزعفرانها وحبوبها.

حصل أيمن وجمانة على عمل في (مستشفى غريان) بدوام لثمان ساعات لكل يوم وبراتب شهري لا بأس به.

كـان العـاملون فـي تلـك المستشـفى خليطًـا مـن جنسـيات مختلفـة، عراقيـون ومصـريون و أوكرانيـون وهنـود، بعضـهم يسكن في بيت يستأجره هو وعائلته إذا كان متزوجًا.
أمـا غيـر المتـزوجين كـانوا يسـكنون فـي بيـت يسـتأجرونه ويتشاركون في دفع إيجاره كي لا يشعروا بالوحدة والغربة.
بعد أن اطمأنَّ أيمن على حال جمانة بحصولها على عمل وسكن مع طبيبتين من الجنسية المصرية، أنهيا زواجهما وانفصلا وأنهمك كل واحد منهما في عمله وأحلامه ومستقبله القادم.
حال وصول جمانة إلى طرابلس اتصلت بوالدتها لتخبرها بكل شيء...
فقد كانت جمانة تبقى لأسبوع أو عشرة أيام كاملة داخل المستشفى في بغداد دون أن يتصل بها أحد من أهلها ليطمئن عليها، لذا استطاعت أن تسافر وتقضي تلك الرحلة الطويلة دون أن تعلم والدتها بها، وقد قررت أن تخبرها حال وصولها إلى هناك.
جنَّ جنون الأم و وبخت جمانة بكلمات نابية قاسية.
وعندما سمع أخواها خبر سفرها تبرءا منها وقالا لوالدتهما قولي لابنتك إن اتصلت بك أننا نعتبرها ميتة، لا أخت لنا

بهذا الاسم بعد اليوم إنها فتاة فاسقة ولا تشرفنا شهادتها أو عملها، الآن هي ميتة في نظرنا.
لكن تلك الأم الضعيفة التي لا حيلة لها سوى البكاء استسلمت لقسوة ولديها التي تعرفها جيدًا، وأخبرت جمانة بكل شيء عندما اتصلت بها لاحقًا.
لكن جمانة قد استعدت لتلك المواجهة.. التي لا بُد لها من الحصول عاجلاً أم آجلًا.
طمأنت والدتها على حالها وأخبرتها أنها وجدت عمل براتب شهري يستحق جهدها، وأنها لا مستقبل لها هنا بذلك الفُتات الذي تتقاضاه وأنها ستعود حال تحسن الأوضاع واستقرارها.
بالطبع كانت جمانة تكذب على والدتها بخصوص الأسباب التي دفعتها للهروب فالحقيقة هي أنَّ الأوضاع المعيشية الصعبة لم تكن السبب الوحيد لهروبها.. لكن ماذا عساها أن تقول لوالدتها المسكينة!
هل تخبرها بجنونها وتعلقها برجل لم يبالِ بها يومًا.. هل تقول لها أنها لم تعد تطيق الدنيا هناك بعد أن صار نبراس حلمًا ممزقًا قبل أن يتحقق؟
هل تعترف لها بأنها قاست في هذا البيت أشد العذاب وقد قصمت القشة ظهر الجمل بعد أن حلّت زوجة براء في المنزل ولم تبقِ شبرًا فيه إلا وقد تصرفت فيه كأنها الآمر

الناهي مستعينة بسلطة ووقاحة زوجها وضعف أم جمانة واستسلامها!
لا يمكن لجمانة أن تزيد من حزن والدتها الضعيفة.
ولا يمكن لوالدتها أن تشعر بما تشعر به جمانة... لذا دفنت الحقيقة في قلبها وراحت تهرب من الحياة ومن الذكريات بالعمل.
بقيت جمانة سنوات طويلة تسكن مع الطبيبتين المغتربتين، وتعمل في المستشفى في (مدينة غريان).
رفيقتا جمانة في السكن خفيفتا الظل طيبتا القلب.. فالمصريون شعب يعشق الحياة ويضفي عليها لون المرح والحب.
كانتا تغنيان وترقصان على الألحان المصرية والأغنيات الجميلة، ويجذبان جمانة من يديها لتشاركهما الرقص والغناء كي تنسى همومها وغربتها.
تطبخ لهما هي الأكلات العراقية اللذيذة... في أوقات فراغها.. وقد تذوقت الحمام المحشي الذي تعده لها رفيقتها الطبيبة المصرية، وقد كان من ألذ الأطباق المصرية مع الملوخية الخضراء والفول المصري بالزيت والليمون والشطة.

الرفيق الطيب يهون علينا الغربة والوحدة.. فنحن في الغربة كأننا أشجار تعرّتْ من أوراقها في مواجهة الريح.
وأن تساعد غيرك وأن تجعل حياة من حولك أفضل هو الإيجار الذي تدفعه للعيش على ظهر هذا الكوكب.
ففي قلب كل شتاء يربض ربيع ينتفض بالحياة.
يقول أرسطو:
يسطع جمال الروح حين يتحمل المرء سوء الحظ مرة بعد أخرى بهدوء.. ليس لأنه لا يشعر وإنما لأنه شخص ذو مزاج عال وبطولي.
كانت تبعث برسائلها إلى أمها بين حينٍ وآخر لتطمئن عليها، وفي كل مرة كانت الأم تذكر جمانة بأنها ستضيع عمرها في الغربة وستصبح عجوزًا دون أن تتزوج، وتردد عليها عبارات التحذير من أن تقضي عمرها وحيدة غريبة.
لم يكن لجمانة من كلام لتقنع به أمها عن سبب عزوفها عن الزواج، فلا أحد كان يعرف قصة حبها المجنونة لنبراس سوى أيمن ومها وقلبها الذي ذهب معه حين فقدته إلى الأبد.
كان نبراس سر جمانة الكبير وعذابها الدائم.
فثمة أشياء لا يمكن أن نشاركها مع أحد مثل سر حبنا الكبير من طرف واحد؛ لأنه سر عذابنا وسر قوتنا معًا.

لكن لا يوجد عذاب أُقسى من عذاب الوحدة.
فبإمكان الإنسان أن يتحمل الظروف المعيشية القاسية، وأن يتحمل العطش لأسبوع كامل والجوع لأسبوعين، وقد يتحمل أن ينام في الشارع أو في العراء دون سقف لعدة أشهر، لكنه لن يستطيع أن يحتمل عذاب الوحدة.
إنها قاسية.. تنخرك من الداخل لتتركك قشرة هشة.
فليس لحياتنا من معنى إن لم يكن هناك من يشاركنا ويشاطرنا انفعالاتنا وابتساماتنا ودموعنا.
في أحد الأيام كان المريض الذي دخل إلى العيادة صباحًا في مستشفى غريان رجلاً طاعنًا في السن، وقد كان يشكو ألمًا في رأسه.
استقبلته جمانة مرحبةً به:
_أهلاً بكَ يا عم تفضل بالاستلقاء على هذا السرير كي أقوم بقياس ضغط دمكَ.
أكملت جمانة الفحص الأولي للرجل وكتبت كل الملاحظات عن حالته وبعض الفحوصات المختبرية الضرورية له.
بعد ساعة من الزمن عاد الرجل وقد اكتملت نتائج فحوصاته، وتبين منها أنه لم يكن يشكو شيئًا سوى ارتفاع بسيطٍ في ضغط الدم.

قالت جمانة:

_كل فحوصاتكَ ممتازة يا عم.. رئتاك، وكبدك، وكليتاك كلها بحال جيدة، لكنك بحاجة لأن أصف لك علاجًا للسيطرة على ضغط دمك المرتفع ثم أعيد تقييم حالتك بعد أسبوعين من العلاج.

_شكرًا لك يا بنيتي.. لكني لا يمكن أن أصدق أنني مريض.. فأنا أعيش هنا منذ أن ولدت وأنتِ ترين مدينتنا وهواءها المنعش، إنَّ مدينتنا نقية وطعامنا صحي.

لن آخذ دوائي، ستعمل لي زوجتي عشبة و ستغليها لي لأشربها كل يوم، أعرف كيف أداوي نفسي من هذا الصداع.

_ لكن يا عم...

_لا تحاولي يا بنيتي... هذه حياتنا منذ القدم وقد تعودنا عليها.

_حسنًا لكن إن احتجتَ لشيء أو شعرتَ بدوار أو صداع تعال فورًا ولا تتأخر.

_كيف وجدتِ مدينتنا يا دكتورة... هل أعجبتكِ؟

_إنها رائعة بجبالها وهوائها، لكن ما يحيرني هو اسمها فأنا إلى اليوم لا أعرف ما معنى اسم (غريان).

_هنالك عدة حكايات قد سمعتها من والدي وجدي عن اسم مدينتنا،

يقال أنَّ أصل التسمية جاءت من كلمتين (غار) و (يان) ويقصد بغار أي الكهف وهو مكان سكن فيه أول رجل أتى وحيدًا إلى هذه المدينة يقال أنه رجل روماني واسمه (يان)؛ لذا سميت المدينة باسمه غاريان أي كهف يان.

- وما هي القصة الأخرى لأصل تسمية المدينة يا عم؟
- يا بنيتي، إنَّ غريان هي كلمة أمازيغية الأصل يقال إنها ترجع لاسم قبيلة أمازيغية عاشت هنا، ويقال أيضًا أنَّ أصل الكلمة هي (غريال) ومعناها أرضُ الطين في اللغات القديمة، وأنتِ ترين مدينتنا فهي جبلية وطينية أيضًا. إنَّ رجالنا أقوياء وأشداء.. ألم تلاحظي طول قامتنا وقوة أجسامنا، نحن رجال الجبل لا نهاب إلا الله. في أمان الله يا دكتورة.
- تذكر أن تأتي عند شعورك بالصداع أو أي عارض آخر أرجوك.

لوح لها الرجل بيده من خلف ظهره مودعًا، وسار بظهر منتصب وبكبرياء واضح فلم تحني السنون ظهره ولم تضعف من عزيمته، بالفعل إنَّ رجال الجبال أشداء أقوياء.

(20)

رفيقتا جمانة في السكن فاطمة وآمال الطبيبتين المصريتين كانتا قد استلمتا العمل هنا في غريان منذ سنوات خلت وتعرفان المدينة بأسواقها ومعالمها جيدًا.
لاحظت آمال أنَّ جمانة منغلقة على نفسها في غرفتها كل يوم منذ عودتها من العمل إلى صباح اليوم التالي فلا تراها إلا عند وقت إعداد العشاء وجلوسِ الثلاثة معًا جمانة وآمال وفاطمة، لذا استغلت موعد جلوسهما حول المائدة مساءً وحاولت أن تسحب جمانة وتنتزعها من عزلتها.

- ما هذا يا جمانة.. أنتِ هنا منذ ثلاث سنوات ولم تخرجي لتشاهدي المدينة التي تعملين فيها.. أنتِ لا تعرفين عنها حتى أدنى شيء؟
- لكن أين لي أن أذهب يا آمال أنا غريبة هنا.. ولا أشعر بأي رغبة في الخروج.
- ستموتين قريبًا بحسرتكِ إذن... هل يمكن لإنسان أن يعيش بسجن انفرادي لسنوات كما تفعلين بنفسكِ... لن أتركِ على هذا الحال أبدًا. ما رأيكِ يا فاطمة؟

كانت فاطمة تفترس الحمامة المحشية التي طبختها آمال للعشاء مع طبق من ورق العنب الذي تعشقه فاطمة، لذا لم تستطع التركيز في الحديث وفي طبق المحشي في الوقت نفسه.

- أنتِ يا بنت... فاااطمة... هل أتكلم مع الجدار...أجيبي.
- آه.. ماذا... نعم سلمت يداكِ المحشي لذيذ (يخرب عقلك).
- لا أتكلم عن المحشي يا بنت... أنا أتكلم عن هذه العراقية المنعزلة التي أمامك، ستقتل نفسها من الوحدة والصمت.. لا بُدَّ أن نعمل لها جدولاً سياحيًا ونصطحبها معنا لترى الأسواق والمعالم السياحية للمدينة وسيدة غريان.
- من هي سيدة غريان يا آمال؟

سألت جمانة بعد أن أثارها الاسم (سيدة غريان).

- ـ هههههههه، نجحت إذن... لن أخبركِ.. بل ستأتين معي غدًا لتشاهديها بنفسكِ. وأنتِ يا فتاة.. فاطمة..

أتركي لنا بعضًا من الحمام المحشي لنتذوقه.. هل أطبخ أنا ولا أحصل على جناح واحد؟

- أووووه... جننتينا بحمامك هذا (خدي يختي كلي واشبعي).

في عطلة نهاية الأسبوع ذهبن ثلاثتهن في رحلة لمشاهدة سيدة غريان والتي ظلت لسنوات عديدة نقطة جذب للسياح في ليبيا.

وسيدة غريان هو اسم للوحة كبيرة شهيرة جدًا مرسومة على أحد جدران معسكر إيطالي مهجور من الحرب العالمية الثانية، رسمها الرسام (كليفورد سابر)، والذي كان سائق إسعاف أمريكي الجنسية متطوعًا مع الجيش الثامن البريطاني وقد كان رسامًا موهوبًا قام برسم تلك اللوحة أثناء إقامة وحدته لبضعة أيام في المعسكر بمدينة غريان كي يرفع الروح المعنوية لرفاقه، واللوحة عبارة عن صورة لامرأة عارية مستلقية على جانبها، جذع المرأة على شكل ساحل شمال أفريقيا والنقاط البارزة بجسمها مسماة باسم مدن شمال أفريقيا.

كانت تلك الرحلة رائعة لجمانة ورفيقاتها، وقد خططن لنزهات لاحقة في أيام العطل الأسبوعية.

فقد كانت المدينة تشتهر بالآثار الرومانية القديمة والسدود المائية والقصور التي بناها الرومان على قمم الجبال.
وضعت آمال لهنَّ برنامجًا سياحيًا متقنًا لعدة شهور، وكان سوق المدينة من أهم البرامج التي يجب عليهن زيارته، ففي المدينة أسواق قديمة وحديثة ومحلات ومقاهٍ وكن يقتنين الثياب والأحذية والحاجيات الضرورية كل ثلاثة أشهر أو يزيد بحسب ما يتبقى لهن من الراتب الذي يتقاضينه كل شهر من العمل.
وفي صباح يوم من عطلة نهاية الأسبوع.
بعد أن أكملت جمانة إفطارها نظرت إلى آمال وفاطمة قائلة:
اليوم ليس لدي مزاج للخروج، سنقضي يوم العطلة هنا في البيت وأنا من سيطبخ لكن غداء عراقيًا لم تذوقا مثله أبدًا.
سألتها آمال:

- ماذا ستعدين لنا من مفاجآت اليوم.. أخبريني هيا.
- سأطبخ لكن أشهر الأكلات العراقية.. إنها (الدولمة)
- هي إيه دي يا بنتي؟
- تستطيعين القول إنها محشي ورق عنب، ولكن بطريقتنا.

صرخت فاطمة من مكانها والتي تعشق المحشي حد الجنون

- آآآآآآه... محشي... بحبك يا بنت.

كانت جمانة تضع الرز والخضراوات والتوابل واللحم على الطاولة وتشرح لهن كيفية عمل المحشي بالطريقة العراقية.
فهو خليط من الفلفل والباذنجان والبصل والسلق وورق العنب كل تلك الخضراوات يتم حشوها بالخلطة المكونة من الرز واللحم والبصل المفروم والتوابل، ثم ترص في القدر وتطبخ على نار هادئة.
وعندما اكتملت الطبخة وبدأت رائحتها الزكية تعبق في المنزل كُنَّ يتسابقن لإعداد (السُفرة) والجلوس إلى المائدة ليذقن الطعام العراقي على الغداء.
تم ترتيب المائدة على أحسن ما يكون.. مفرش الطاولة والكؤوس وثلاثة أطباق وملاعق وكذلك شوكة وسكين لكل طبق.
أرادتْ آمال أن تبدأ بسكب المحشي على الطريقة التي تعرفها، أي أن تضع قطعة قطعة في الطبق وتصفها بترتيب جميل لكن فاجأتها جمانة بطريقة أخرى، فقد أحضرت (صينية) كبيرة وقامت بقلب القدر فيها، واضعة في البداية

رغيف خبز كبير، ثم أحضرت تلك الصينية ووضعتها وسط الطاولة قائلة:

- هكذا تؤكل الدولمة العراقية.. تستطيعان الأكل هكذا من الصينية مباشرةً، وإن أحببتما أن تأخذ كل واحدة منكما ما يعجبها منها في طبقها الخاص.. لكن الدولمة أو المحشي كما تسموه لا بُدَّ أن يُقلب من القدر في صينية وعلى رغيف خبز كي يمتص الرغيف الزيت والطعم اللذيذ.
- شكلها ورائحتها رائعة.

وأضافت فاطمة قائلة:

- سأتذوق أولًا من الصينية كي أقرر هل أضع في طبقي أم أذهب وأقلي لي بيضة على الغداء... هيا تعال أيها المحشي العراقي.

وضعت فاطمة أول لقمة في فمها فصاحت بذهول:

- اااه يخرب بيتك... إيه ده... حلوة اووووي.

كانت فاطمة تضع لقمتان في فمها في كل مرة ولا تهتم للحرارة والبخار المتصاعد من (الدولمة) أو المحشي الذي يحتاج وقتًا كي يبرد.

فاطمة امرأة خفيفة الظل ثقيلة الوزن، ذات بشرة سمراء لطيفة وشعر أسود طويل، تعشق المزاح والطعام لتزيل عن نفسها همومًا قد تراكمت منذ زمن.

فلطالما كانت تشعر في الليالي بضيق شديد تتخلص منه بالبكاء والفضفضة مع جمانة عن ماضيها وقصتها المؤلمة.

ففاطمة أكبرهن سنًا وقد قطعت في عملها كطبيبة أطفال ما يقارب ثلاث عشرة سنة، بينما ما زالت جمانة وآمال في بداية الطريق، فقد هربت جمانة من خيالات حب لم يرَ النور وضيق الحال والوضع الاقتصادي المتردي لبلدها وعائلتها التي لم يفرق معها وجود جمانة من عدمه.

وكذا كان حال آمال التي بعد تخرجها بثلاث سنوات جاءت إلى غريان كي تعمل براتب يعينها على العيش بكرامة، فقد كان راتب الطبيب في مصر لا يكفي لسد رمقه وخاصة إنها من أسرة تتألف من خمسة بنات تخرجنَّ ليعملنَّ بشهاداتهنَّ الجامعية وإعالة أنفسهنَّ بعد أن صرفت الأم كل ما تملك على تعليمهنَّ وتربيتهنَّ كي يتخرجنَّ من الجامعات.

ومنذ أن جاءت آمال إلى هنا وهي تقسم راتبها الشهري بينها وبين والدتها كي تؤمن لها حياة كريمة وتجنبها العوز.
لكن فاطمة تلك قصتها تختلف تمامًا، فهي لم تهرب من ضيق الحال فقد كانت من أسرة غنية في الأساس ولديهم ما يكفي من الأراضي والأملاك لتعيش حياة منعمة مرفهة، لكنها هربت من ذكريات زواج دام خمس عشرة سنة ثم انهار بعدها كأن إعصارًا اقتلعه من جذوره.
فقد ارتبطت فاطمة بشاب معها في الجامعة بعد قصة حب عاصفة تكللت بالزواج قبل تخرجهما بثلاث سنوات، واستمر ذلك الزواج في توهجه سنوات طويلة لأن حبهما كان أقوى من أي مشكلات عابرة يمكن أن تصادف أي زواج.
لكن لا تكتمل الفرحة غالبًا فنحن في الدنيا وليس في الجنة ولا بُدَّ أن يعترض طريقنا شيء يفسد علينا فرحتنا أو ليختبرنا عندها إما ننجح في ذلك الاختبار بكثيرٍ من الصبر أو نفشل بسبب ضعف الإرادة والإحباط الشديد.
كانت مشكلة فاطمة هي العقم، وما أصعب أن يكون طبيب الأطفال مصابًا بالعقم؛ لأنه كل يوم سيرى تلك الوجوه الصغيرة والابتسامات البريئة وتلك الأيدي الناعمة الصغيرة التي يعالج أصحابها من المرض ويعيدها إلى أحضان

الأمهات ويرسم ابتسامة على شفتيه المحرومتين من قبلات طفل من صلبه.

فقد اكتشفت فاطمة صعوبة حملها بعد سنة من الزواج، وخضعا هي وزوجها لبرامج علاج كثيرة دون أن يحصلا على نتيجة، فمشكلتها أنَّ مبيضها لا ينتج بيوضًا ناضجة أو ما يسمى بتكيّس المبايض، لكنها حالة بسيطة بالنسبة لكثيرٍ من المصابات بها وقد يثمر العلاج بتخفيف الوزن وتنشيط المبيض بإعادة الحصول على بويضاتٍ طبيعية الحجم.

استمر ذلك الحال حوالي عشر سنوات أو أكثر تستخدم فاطمة علاجها ويتحسن الحال ثم تنتظر أن يحدث حملاً لكنه لا يحدث، بعدها حاولا أن يجربا عملية التلقيح الصناعي أو أن يحصلا على طفل بطريقة أطفال الأنابيب لكن محاولتين من هذا النوع باءت بالفشل.

لكنهما بعد تلك السنوات من اليأس تفاجئا بحمل فاطمة لأول مرة ودون أن تأخذ أي أدوية.

كانت فرحتهما عارمة لا توصف، قاما بتحضير كل شيء لاستقبال ولي العهد الذي انتظراه طويلاً، وقد ولد مصطفى بعد تسعة أشهر من الحمل المتعب، كان له عيني أبيه البنيتين وابتسامة أمه الرقيقة.

شعرت فاطمة بعد ولادة ابنها أنَّ لا أحد في هذه الدنيا أكثر سعادة منها.

فلديها زوجها الذي اقترنت به بعد قصة حب رائعة، ومنزل قد صمم على أحدث طراز في البناء والديكورات الداخلية، والآن أصبح لديها قرة عينها مصطفى طفلها الحبيب وثمرة زواجها كل تلك السنوات.

بلغ ابن فاطمة السنتين من العمر وهو في أتم صحته لكنه وعلى حين غفلة بدا يسعل بقوة ثم تقيء بعدها وكان قيؤه مخلوطًا بالدم، وارتفعت حرارته وقد كان شحوبًا واضحًا باديًا على وجهه.

أسرعا به إلى مكان عملهما في المستشفى حيث أُدخل إلى قسم الأطفال، وخضع لكثيرٍ من الفحوصات، فقاموا بعمل فحص دم كامل وفحص لوظائف الكبد والكلى ولسوء حظ هذين الوالدين أو هو سوء حظ الطفل أو قد تكون مشيئة الله التي لا نعلم عنها شيئًا تبين أنَّ مصطفى مصاب ب (اللوكيميا) وهو سرطان الدم، وعند فحص خزعة من نخاع العظم تبين أنها من النوع الحاد والسيء، حيث يبدأ نخاع العظم بإنتاج العديد من خلايا الدم البيضاء الشاذة فتدخل مجرى الدم وتبدأ بمزاحمة خلايا الدم السليمة وتمنعها من القيام بوظائفها بشكل صحيح، فيفقد الطفل مقاومته ضد

العـدوى ويصـاب بفقـر دم حـاد ونـزف نتيجـة نقـص فـي الصـفيحات الدمويـة بسـبب تلـك المزاحمـة لعملهـا مـن قبـل خلايا الدم البيضاء غير الناضجة وغير الطبيعية.

كانت خطة العلاج هو أن يتم مطابقة نخاع العظم للطفل مع والديه أو واحد من أسرته؛ ليتم نقل نخاع عظم سليم له وكذلك أن يتم علاجه بدفعات من العلاج الكيميائي.

لم يمر على بقاء الطفل في المستشفى سوى بضعة أيام وقد كانت الفحوصات لا تزال جارية، لكن مصطفى لم ينتظر فتوقف قلبه بشكل مفاجئ ولم يستعِد نبضاته رغم كل المحاولات لإنعاشه وإعادة الحياة فيه وكأنه أحبَّ أن يفارق الدنيا بسلام دون أن يعيش ألم المرض والدواء الكيميائي.

لم تصدق فاطمة الذي جرى، فهل يعقل أن ترزق طفلاً بعد عقد أو أكثر من زواجها لتتعلق به وتحبه ثم تفقده بسهولة هكذا!

هل يعقل أن يتبخر من أمام عينيها بهذه السرعة.

كان الأب مصدومًا بموت ابنه الذي لم يعش بينهما سوى سنتين.

جلست فاطمة على الأرض في أحد أركان الغرفة التي كانوا فيها في المستشفى تنظر إلى طفلها وهم يسحبون الغطاء على رأسه ويغطون جثته بالكامل.

كانت عيناها مفتوحتين بقوة وجسدها يتصبب عرقًا باردًا، لا تصرخ ولا تبكي... تنظر فقط وكأنها مجنونة، تعيش في عالم منفصل عن الجميع، تشعر أنها سقطت في بئر مظلمة.

أما الوالد فقط تصرف بشكل أفضل له؛ لأنه عبَّر عن حزنه بحرقة ودموع وراح يُقبِّل وجه ابنه ويحتضنه.

أن يُخرج الإنسان كل ما يشعر به من حزن وألم أو فرح أو أي مشاعر تخالجه هو أمرٍ صحي تمامًا، لأنه سرعان ما يتعافى بعد أن تخرج كل تلك السموم من داخله ثم يستطيع بعد برهة من الزمن أن يقبر ألمه ويعود للحياة من جديد.

أما هؤلاء الذين يتصرفون كما تصرفت فاطمة... هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يستوعبوا الذي يحدث.. ستبقى النار تستعر في دواخلهم كالبركان.. لا يهدأ وتظل حممه تقذف إلى ما لا نهاية، سيظلون يشعرون بمرارة الحزن وهي تسمم حياتهم مرارة في الحلق واللسان والروح.

حاولت والدة فاطمة ووالدها أن يساعدانها على النهوض لكنها كانت متخشبة لا تنطق ولا تسمع.. فحملوها الأم تمسك بذراعها من جهة والأب من جهة أخرى وقدماها تخطان على الأرض لا تعي ما يدور من حولها شيئًا.

أكملت العائلة مراسم دفن الطفل، وبقيت فاطمة في بيت والدها بعد أن تم فحصها من قبل طبيب الأمراض النفسية

والذي أخبرهم بإصابتها باكتئاب حاد، فظلت حبيسة فراشها لأسابيع صامتة لا تحدث أحدًا وعيناها تنظران بعيدًا كأنها تنظر إلى المجهول.

قضت عدة أشهر على هذه الحالة تنفجر بالبكاء أحيانًا وتنام ساعات طويلة على المهدئات أحيانًا أخرى.

لكنها بمرور الوقت بدأت تتعافى وعلاج الاكتئاب الذي وصفه لها طبيبها قد فعل فعله، فامتصت صدمتها بعد وقت ليس بالقصير وعادت إلى بيت زوجها الذي بدا ينفد صبره من وضع زوجته الصحي.

عادت فاطمة إلى بيت زوجها، فكان المنزل موحشًا غريبًا وكأنه لم يكن منزلهما يومًا.

ظلا يجتران الأحزان، يلف أجواء منزلهما الصمت والحزن، فحتى لو فكرا بأن يذهبا للعلاج كي يحصلا على طفل آخر لن يكون بإمكانهما ذلك بعد أن أصيبت فاطمة بما يسمى بسن اليأس المبكر، أي أنَّ مبيضها توقف عن إنتاج البيوض قبل سن اليأس المتعارف عليه نتيجة الصدمة الكبيرة التي تعرضت لها بفقدان مصطفى ولم يعد هناك أمل بحمل جديد.

لاحظت فاطمة من خلال حزنها أنَّ زوجها بدأ يتغير وإنَّ شيئًا ما يبعده عنها، لم تحاول أن تسال لأنها كانت ترمي الذنب

على نفسها بأنها لم تنجب له أطفالاً وقد يكون هذا بالتحديد سبب انزعاجه وملله الواضح.
بعد سنة تقريبًا من تلك الحادثة جاء زوج فاطمة إليها ليتكلم معها بشيءٍ مهم.

- اسمعيني يا فاطمة، ما أتحدث عنه هو شيء ضروري لكلينا.
- نعم.. قل ما لديك... فأنا استمع.
- لا يمكن أن نبقى على هذه الحال.. فأنا أريد ولدًا أو بنتًا.. أريد طفلاً من صلبي وأنتِ تعلمين كم أحبكِ يا فاطمة لكن هذا الموضوع لا علاقة له بحبنا، أنا فقط أريد أن أتزوج ليكون لدي طفلٌ، وستبقين أنتِ زوجتي المعززة المكرمة، لن أفرط فيكِ مهما حصل ولن أقصرَّ في حقوقكِ صدقيني.
- اسمع يا آدم.. بعد موت ولدي لم يعد شيء يفاجئني أو يحزنني حتى خبر زواجكَ هذا قد توقعته منذ زمن وحضرت الإجابة أيضًا. لو كان الأمر بيدي لم أحرمكَ من الأطفال أبدًا لكنها مشيئة الله ولا أرادة لي فيها، لكنني لا أستطيع أن أكون معكَ وفي أحضانكَ

امرأة أخرى، فأنتَ حبي الوحيد منذ سنوات الجامعة ولا أريد أن أخدش هذا الحب برؤيتكَ خائنًا لي.

- لا تقولي هذا.. تعلمين أني لم أخنكِ يومًا.. وما رغبتي بالزواج هذه إلا لأحصل على طفل.
- هذه بداية فقط.. لكن عند اقترانك بامرأة أخرى قد تتغير.. ستنسى ما كان بيننا وخاصة إذا رزقكَ الله أطفالًا، فستكون تلك هي عائلتك ولن يبقى لي سوى مكان الغرباء. تزوج يا آدم.. أنا لا أمنعكَ لكني سأرحل... أرجوكَ عجّل في إتمام إجراءات الطلاق بأسرع ما يمكن كي لا تطيل من ألمي.

حزمت فاطمة حقائبها وعادت إلى بيت والدها... وبعد يومين كانت ورقة طلاقها قد وصلتها، ثم سمعت بخبر زواج آدم بعد ثلاثة أشهر تقريبًا.

لم تستطع المكوث في القاهرة التي تعشقها كثيرًا بعد أن فقدت الابن والزوج.

صار النيل منبعًا للذكريات التي تشق صدرها، فبعد سعادة لا توصف بقصة حب انتهت بزواج سعيد لعدة سنوات ثم صبر طويل حتى منَّ الله عليهما بطفلٍ ملأ المنزل فرحًا ينتهي كل

شيء بلمح البصر، كيف يمكن للأقدار أن تقلب حياتنا رأسًا على عقب هكذا.

كان لديها كل شيء والآن هي وحيدة خالية من كل شيء إلا حفنة من الذكريات، لذا قررت الهرب من البلاد كلها على الرغم من توسلات والدتها بأن تسافر لبعض الوقت إلى أي دولة كي تريح أعصابها وتستجم قليلاً، إلا أنها رفضت كل الحلول واختارت أن تذهب لتدفن نفسها وذكرياتها في مدينة بعيدة عن كل من يعرفها في مصر.

فاختارت العمل في مدينة غريان كطبيبة أطفال، وسكنت مع بعض الطبيبات في بيت استأجرنه سويًا ثم غادرنَّ بعد حصولهنَّ على الهجرة إلى كندا وبقيت هي هناك مع آمال التي أتت لتسكن معها في الوقت المناسب كي تخفف عليها وحدتها.

وعند وصول جمانة عرضتا عليها السكن معهما بعد أن وجدتاها في حيرة تامة بخصوص سكنها، ولحسن حظهنَّ ثلاثتهنَّ، فقد توافقنَّ في الأمزجة والطباع وأحببنَّ بعضهنَّ جدًا، مما خفف من وطأة الشعور بالغربة والوحدة.

بقيت جمانة في تلك المدينة سنوات طويلة فقد أتتها وهي في الخامسة والعشرين من عمرها، لكن الزمن لا ينتظر أحدًا، فها هي الآن تدخل في العقد الرابع من عمرها دون أن تشعر

كيف مر العمر سريعًا وكأنها تجلس في مقعد داخل قطار يسير بسرعة كبيرة ولا تملك سوى النظر من النافذة إلى المحطات والأشجار والبقاع وهي تخطف بسرعة أمام ناظريها.

كانت السنوات التي قضتها جمانة بعيدة عن بغداد قاسية ثقيلة، لكنها استطاعت فيها أن تسكّن جراح قلبها وتضع حبها الضائع في مكان قصي من الذاكرة لن تصل إليه يدها.

فلن تقّلب الذكريات ولن تسترجع الماضي.

خبأت حزنها خلف معطفها الأبيض الذي كانت ترتديه كطبيبة منهمكة في عملها، توهم نفسها بالقوة وعدم الحاجة إلى حبيب أو شريك للحياة والأيام.

(21)

(ثورات الربيع)

أو ما يسمى بالثورات العربية أو الربيع العربي، حركات احتجاجية سلمية انطلقت في بعض البلدان العربية خلال أواخر عام 2010م ومطلع 2011م متأثرة بالثورة التونسية التي اندلعت في تونس بعد أن قام محمد البو عزيزي بإحراق نفسه.

أحرق ذلك الشاب نفسه احتجاجًا على الأوضاع المعيشية والاقتصادية المتردية وضعفه في توفير قوت لعائلته، فاندلعت الثورة التونسية على أثرها وانتهت بمغادرة الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، ثم بعدها بتسعة أيام اندلعت الثورة في مصر وتلتها بأيام الثورة اليمنية.

كان الشعار الذي يردده المتظاهرون في كل مكان هو (الشعب يريد إسقاط النظام)،

فكانت ثورة 25 يناير في مصر والتي بدأت كمجموعة من التحركات الشعبية ذات الطابع الاجتماعي والسياسي التي

انطلقت يوم الثلاثاء 25 يناير 2011 احتجاجًا على الأوضاع الاقتصادية والمعيشية السيئة.

في هذا الوقت كانت جمانة ورفيقاتها ما زلن في مستشفى غريان في ليبيا خلال تردد الأخبار باندلاع ثورة في مصر واستمرارها لعدة أيام، يطالب فيها المتظاهرون برحيل الرئيس حسني مبارك، وكثُر الكلام عن ثورات الربيع العربي والانقلابات التي تجتاح الدول العربية وقد تكون ليبيا في السرب قريبًا.

في نفس الليلة التي حدثت فيها المظاهرات في مصر كانت جمانة تتحدث مع فاطمة وآمال بخصوص قرار اتخذته ولا تنوي التراجع عنه.

- سأعود إلى العراق.
- ماذا هل جننتِ... نحن في أمان هنا لن يحدث لنا شيء... ثم إنكِ قد تعودتِ على هذه الحياة.
- قد تمتد الثورة إلى هنا.. ولا نعرف كيف سيكون الوضع، ثم أنَّ والدتي مريضة ولا بُدَّ أن أكون إلى جانبها الآن، فقد أصيبت بجلطة قلبية منذ حوالي أسبوع، وهي بحاجة لوجودي خوفًا من حدوث أي طارئ، فقد تركها أخي براء وزوجته منذ شهرين

تقريبًا وسكنا في شقة خاصة بهما، لذا لا بُدَّ لي من العودة فلا يمكنني أن أتركها تعيش وحيدة في البيت.

- فـي هـذا لا نسـتطيع أن نلومـكِ يـا جمانـة... لكننـا سنفتقدكِ كثيرًا حبيبتي.

احتضنتها فاطمة وفتحت حنفية دموعها كالعادة، فقد كانت جمانة ملجأها وعزاءها في غربتها.

- لكن أنتما أيضًا لا بُدَّ أن تفكرا في العودة، إنَّ البلدان العربية تنتفض وبالتأكيد ستكون ليبيا من بينها ونحن هنا غريبات وسوف نكون في موقف لا نحسد عليه إن حصل شيء.

أجابت آمال مرتعبة:

- لكـن كيـف سـنعود ومصـر ملتهبـة الآن، فالمظـاهرات في كل مكان وسوف يعلنون حالة الطوارئ بالتأكيد.

صـاحت فاطمـة مـن مكانهـا وهـي علـى كرسـيها الهـزاز الـذي تعودت الجلوس عليه:

- لن أعود أنا مهما حصل، لن أدع الذكريات تلتهمني في القاهرة.

ردت عليها جمانة:

- ليس هذا وقت العواطف يا فاطمة، إذا حدث انقلاب هنا لا ندري كيف سيكون وضعنا، لا بُدَّ أن تعودي، بمجرد أن تهدأ الأوضاع في مصر هذه الأيام عودا بأسرع وقت أنتِ وآمال، أما أنا فقد قررت السفر خلال يومين.

عقبت آمال على كلام جمانة موجهة الحديث إلى فاطمة:

- اسمعي يا فاطمة، إنَّ كلام جمانة هو عين الصواب، ليس لنا بقاء هنا بعد اليوم، سأعود أنا خلال أيام بمجرد أن أرى ما الذي ستنتهي عليه المظاهرات في مصر وأرجوكِ أن تعودي معي.

رمقتهما فاطمة بعينين دامعتين وقد أومأت برأسها علامة على الإيجاب وقبول قرار العودة.

اتخذت جمانة قرارها بالعودة بعد كل تلك السنوات، فلم تعد تحتمل الوحدة والغربة فضلاً عن مرض والدتها المفاجئ والوضع القلق في ليبيا بعد ثورة مصر وتونس، ثم أنَّ نظام الحكم في العراق قد تبدل بعد احتلال بغداد ودخول الجيش الأمريكي للعراق وتغيرت القوانين الصارمة، فلم يعد هناك

مانع من السفر أو حظر للإنترنيت أو الفضائيات، أصبح البلد منفتحًا على التكنولوجيا، لكن الطامة الكبرى هي أنَّ البلد وقع في احتلال وحرب أهلية بين طوائفه المتعددة، فتخلص من الدكتاتورية ودخل في الهرج والمرج والانفلات الأمني والعصابات المسلحة، يبدو أنَّ قدر العراق أن يظل ينزف حربًا ودمًا وظلمًا إلى الأبد.

عند عودة جمانة إلى بغداد، كان كل ما في بغداد قد تغير، فالحواجز الإسمنتية في كل مكان تحجز منطقة عن جارتها وكأنها دويلات منعزلة وعندما تنظر في أعين الناس في الشوارع تجد الخوف والقلق في نظراتهم، خوف أصبح رفيقهم الدائم فهم يستيقظون صباحًا على دوي الانفجارات.

يدفنون ظهرًا موتاهم ويقيمون عزاءً لهم، وقد يحدث وهم في طريق العودة من دفن أحبائهم أن يغرقوا في الزحام بسبب غلق الطرقات والشوارع الفرعية وقد يصادفهم في طريق العودة انفجار آخر لعبوة أو سيارة ملغمة أو إرهابي يرتدي حزامًا ناسفًا فيقطعهم إلى أشلاء.

أصبحت المقابر تزار كل يوم عدة مرات، وحفار القبور يعمل ليلًا ونهارًا دون توقف هو وذلك الشخص المسؤول عن تكفين الموتى، فعندما يكثر الموت يزدهر عمل الدفان وناعي الموتى وتصبح المقابر أكثر زحمة من المتنزهات والحدائق

العامة، حتى أنَّ كثيرًا من الناس قاموا بشراء قطعة من الأرض في المقبرة وهم ما يزالون على قيد الحياة ليضمنوا لأجسادهم مكانًا يقبروا فيه بعد الموت، لأنهم لو انتظروا إلى أن يحين وقت موتهم قد لا يجدوا شبرًا خاليًا من الأرض يحتضنهم.

هذا هو حال البلد الذي هربت منه جمانة في وقت الجوع والحصار والذي عادت إليه وهو في زمن الموت والخوف.

فالخوف هو الهاجس المسيطر على البلد المنهك، ورائحة الموت تنتقل من بيت لآخر.

فالحرب الأهلية هي أسوأ أنواع الحروب التي يقع فيها أي بلد، وللأسف فقد انجرَّ العراق لهذه الحرب الطائفية بقوة، فصار بعضهم يقتل من أجل كلمة واحدة تخالف رأيه أو مذهبه، حرب شوارع وعصابات سرقة وقتل تحت اسم المذهب والدين.

فعند أول سقوط للحكم في بغداد عمَّت الفوضى وسُلبت الممتلكات العامة من المؤسسات الحكومية، فوضى لا يمكن وصفها إلا بأن نتكلم عن المضاد لها.

والمضاد لها هي تلك الشعوب التي تحترم تاريخ بلدها وتشعر بأنَّ الأخلاق والنظام هو المذهب الذي يجب أن يتبع.

كثيرًا ما كانت مها صديقة جمانة والتي رافقتها أيام التدريب في مستشفى اليرموك في بغداد تتصل بها بفترات متقاربة لتسمع أخبارها وتنقل هي بدورها أخبار الناس في بغداد التي بقيت مها وزوجها فيها كل تلك السنوات الثقيلة.

وعندما علمت بعودة جمانة إلى العراق كانت تتلهف لرؤيتها والثرثرة لساعات معها لذا فبعد أسبوع واحد من عودة جمانة قامت مها بدعوتها لتناول الغداء يوم الجمعة في المنزل وأعدت لها وليمة متعددة من الأكلات العراقية التي لا تفارق الموائد في أيام الجمع والأعياد في بيوت العراقيين، فكان السمك (المسكوف) والرز المخلوط باللحم والتوابل الحارة يتصدر المائدة.

كانت أسرة مها صغيرة ولطيفة، فهم أربعة أفراد فقط مها وزوجها وبنت وولد. اجتمعوا مرحبين بجمانة حول المائدة بعد أن عاد زوج مها من المسجد فور انتهاء صلاة الجمعة التي لم يتخلف عنها يومًا رغم الخطر وشبح الموت الذي يزور المساجد ويقتنص التجمعات بين حينٍ وآخر على هيئة انتحاري بحزام ناسف يندس بين المصلين أو سيارة ملغمة تنتظرهم بباب المسجد لتنفجر حال دخولهم أو خروجهم منه، لكن يبدو أنَّ العراقيين أدمنوا الموت فأصبح زائرًا يوميًا مألوفًا لديهم.

بعد أن انتهى الجميع من تناول الغداء ذهب كل منهم إلى غرفته الخاصة للتمتع بقيلولة قصيرة ولم يبقَ إلا مها وجمانة حيث جلستا في المطبخ لتشربا الشاي وتتبادلان حكايات الماضي وبعض المزحات البذيئة للتسلية.

فبدأت مها ترسل لجمانة بعض من تلك المزحات والرسوم الكاريكاتورية وبعض المقالات على هاتف جمانة النقال.

- جمانة اقرأي ما أرسلته لكِ الآن على (الواتس آب) هههههه إنها بعض من النكات البذيئة ستجعلكِ تنفجرين من الضحك... هيا حبيبتي أرجوكِ لا تحزني، أريد أن أرى ابتسامتكِ على وجهكِ مرة أخرى.
- لم تتغيري مطلقًا يا مها... لا زلتِ طيبة القلب خفيفة الظل كما أنتِ. طيب سأقرأ كل ما ترسلينه لي لكني قد تأخرت كثيرًا اليوم لا بُدَّ لي من المغادرة فوالدتي الآن لوحدها في المنزل. وداعًا حبيبتي.. قبلاتي للجميع.
- وداعًا يا جمانة... لا تنسِ أن تتصلي بي حال وصولكِ.

في الطريق إلى المنزل كانت جمانة تقلب في هاتفها النقال وتبتسم لتلك الأشياء المضحكة التي أرسلتها مها، ثم وقعت عيناها على مقال طويل كان من ضمن ما أرسلته مها إليها، كان المقال للكاتب (عطية الأوجلي) ففتحته جمانة وبدأت بقراءته خلال جلوسها في سيارة الأجرة وهي في طريقها إلى المنزل.

كان المقال بعنوان المسألة لا سحر فيها، وهو يتكلم عن المضاد أي البلد الذي يحترم أبناءه بعضهم بعضًا.

يقول فيه:

أنت تحصد ما تزرع، فالشعوب التي تهتم بالتوعية وغرس القيم الإنسانية وتعلم صغارها مبكرًا معاني الرفق والصدق والتعاون واحترام العمل ستحصد النجاح والتقدم والتميز، والشعوب التي تعلم صغارها الغش والكذب والنفاق والاعتداء على حقوق الغير والتعصب واحتقار العمل ستحصد الفساد والخصومات الدامية وستغوص حتى قمة رأسها في العجز، فالمسألة لا سحر فيها.

ففي إبريل 2011م ضرب اليابان زلزال فتأثرت به محطة فوكوشيما النووية وانهار أحد جدرانها وقد تسبب الزلزال في موت وتشرد الآلاف، وخلّف العديد من المآسي، غير أنَّ

الملفت للنظر في هذه المأساة هو تصرف الشعب الياباني بشكل يثير الإعجاب والاحترام.
فقد تميّز الشعب الياباني بالهدوء وضبط النفس، لم يكن هناك صراخ في الشوارع أو نواح وإنما فقط حزن يتسامى.
وقد احترموا الطوابير والنظام، فرغم الظروف الصعبة لم تشهد الطوابير أي عراك أو سباب أو حوادث عنف.
كانوا رحماء فيما بينهم، فقد اشترى كل منهم ما يحتاجه فقط رغم أنَّ هناك فرصة للجميع أن يشتروا ما يشاؤون لكن لم تشهد الأسواق هيجانًا ولم تسجل حالات سرقة للمصارف.
أما الإعلام فقد أبدى درجة كبيرة من المسؤولية، فلم تكن هناك تعليقات تافهة أو تصفية حسابات أو أي استغلال للأزمة لنيل المكاسب السياسية.
وقد كانت التضحية هي السمة الواضحة للعمال في المحطة، فقد بقي حوالي خمسون عاملًا داخل المحطة النووية يضخون ماء البحر لتبريدها خوفًا من انفجارها رغم المخاطر الواضحة التي قد تصيبهم.
أما المطاعم فقد قامت بتخفيض الأسعار تضامنًا منها مع المتضررين، ويقال أيضًا عندما انقطع التيار الكهربائي قام الناس الذين كانوا يتبضعون بإعادة الأكياس التي يحملونها إلى الرفوف وخرجوا بهدوء.

وقد كانت تقارير الشرطة في تلك الفترة تشير إلى أنَّ الناس قد قاموا بتسليمها مبالغ كبيرة من الأموال التي جمعوها من جثث الموتى تحت الأنقاض.

كل هذه التصرفات لم تأتِ من فراغ، فالمجتمع الياباني لم يكن بهذه السمات منذ حوالي قرن مضى، وإنما اكتسب الكثير منها نتيجة عقود من العمل المتواصل والتربية والتعليم والتدريب والتخطيط وغرس القيم الجديدة.

أكملت جمانة القراءة.. ثم كتبت لمها معقبة على ذلك:

نعم يا عزيزتي بالتأكيد أن المسألة لا سحر فيها...

ولا بُدَّ لنا من أن نعترف أنَّ ما سقطنا فيه من حرب أهلية وسرقة وسلب للممتلكات العامة وانتشار عصابات القتل والسرقة ما هي إلا (أزمة أخلاقية) وأزمة معرفية.

(22)

بعد أن استقرت جمانة واطمأنت على صحة والدتها، حاولت أن تتصل برفيقاتها لتفهم ما حدث خصوصًا أنَّ التظاهرات في مصر انتهت بتنحي الرئيس المصري حسني مبارك عن الحكم على إثر ثورة 25 يناير بعد ثمانية عشر يومًا من اندلاعها.

فقد سميت تلك الثورة بتسميات عديدة منها ثورة الغضب أو الثورة الشعبية المصرية أو ثورة اللوتس أو الثورة البيضاء.

حيث بدأ يوم غضب الشعب المصري في يوم الثلاثاء 25 يناير 2011م وهو يصادف يوم عيد الشرطة المصري فملأت التظاهرات السلمية الشوارع في جميع أنحاء البلاد متجهين جميعًا إلى ميدان التحرير.

استمرت الاحتجاجات تلك إلى يوم جمعة الغضب، حيث دعت القوى الشعبية إلى جمعة الغضب والخروج من المساجد بعد صلاة الجمعة ودعت أقباط مصر للتجمع في الكنائس والخروج في وقت واحد متحدين مع مسلمي مصر ليكون يوم 28 يناير هو أكبر تجمع للشعب المصري مطالبين برحيل الحاكم.

وإذا الشعب يومًا أراد الحياة فلا بُدَّ أن يستجيب القدر، وقد استجاب القدر للشعب المصري الذي أصرَّ على تغيير الحكم والحاكم.

وقد تحقق ما حذّرت منه جمانة رفيقاتها، وبالفعل بعد عدة أيام من تظاهرات مصر ورحيل الرئيس المصري امتد لهيب الثورة إلى ليبيا، وبدأت حركات احتجاجات وتجمعات للثوار الليبيين تطالب بتغيير الحاكم، فما كان من الطبيبتين المصريتين فاطمة وآمال إلا أن تعودا إلى القاهرة عند أول أنباء لاحتمالية حدوث انقلاب في ليبيا خصوصًا بعد انتشار أخبار تحركات للثوار في البلد.

فقد بدأت في 15 فبراير 2011م سلسلة من التظاهرات والاحتجاجات وأعمال العصيان المدني في الشوارع.

كان المتظاهرون يعترضون على قلة الحريات السياسية، وانعدام حرية التعبير تحت حكم الرئيس الليبي معمر القذافي.

تطورت تلك الاحتجاجات إلى صراع مسلح بين القوات التابعة للرئيس القذافي وبين الثوار الذين سيطروا على مدينة بنغازي وعدة مدن أخرى، ثم أصدر مجلس الأمن قرارًا بحظر جوي على ليبيا لحماية المدنيين، وبعدها شنت قوات التحالف غارات على المواقع العسكرية التابعة للرئيس معمر

القذافي لوقف هجماته على المدن الليبية التي يسيطر عليها الثوار.

استمر هذا الصراع بين القوات التابعة للقذافي وبين الثوار إلى أن وقعت العاصمة طرابلس في أيدي الثوار الليبيين وانسحب الرئيس القذافي إلى مدينة السرت التي كانت مسقط رأسه.

لكن في 20 أكتوبر 2011م وقع الرئيس القذافي بيد الثوار وتم قتله وانتهى حكمه الذي دام 42 عامًا، وانهار معه نظام الجماهيرية الليبية الذي أسسه.

(23)

(النقش في الحجر)

تخصصت جمانة في طب الطوارئ وهو أحد فروع الطب التي تعنى بالحالات المرضية الحرجة والطارئة والمصابين في الحوادث والكوارث والانفجارات.

كانت هي وفريق عملها تتنقل بين عوائل المرضى التي لا تكاد تفرغ حتى تمتلئ مرة أخرى خلال دقائق.

خلال السنوات التي سبقت احتلال بغداد في سنة 2003م كان أغلب ما يدخل في ردهات الطوارئ في المستشفى هم من ضحايا حوادث الطرق المرورية أو ممن يصاب بحادث سقوط أو أزمات قلبية وغيرها من الحالات الطارئة.

أما ما حدث بعد هذا التاريخ المروع 2003 فقد يعجز اللسان عن وصفه.

حتى أكثر المخرجين إبداعًا لأفلام الرعب سيقفون مذهولين وهم يشاهدون الكم الهائل من الأجساد التي تُنقل كل يوم بالعشرات والمئات إلى المستشفيات التي لم تعد تستوعب

كل تلك السيناريوهات من الرعب والجرحى ومبتوري الأيدي والأرجل.
كعروس ترملت ليلة زفافها لم تذق بغداد طعم الفرح منذ زمن بعيد.
شعب أرهقته الحرب وأتعبه الفقر والبطالة.. ما لبث أن وقع في كارثة أخرى هي سقوط بغداد ودخولها من قبل الجيش الأمريكي ليتم تبديل نظام الحكم والحاكم.
وما أعقب ذلك من مشاهد مرعبة من مسلسل الخطف والقتل وقطع الرؤوس والاغتصاب وغيرها، يا ترى هل يمكن لشعب أن يتحمل كل ذلك الرعب كما تحمله العراقيون؟
يا لسخرية الأقدار..
كانت جمانة في فترة استراحتها التي لا تتجاوز نصف ساعة قد صبت لنفسها كوبًا من الشاي؛ ليعينها على التركيز في العمل وأمسكت بهاتفها ثم فتحت محرك البحث الغوغل لتبحث عن معلومة مهمة قفزت في تفكيرها منذ لحظات.
فقد كانت تفكر بشيء قد قرأت عنه مرة قبل سنوات والذي يدور عن مرض نفسي يسمى (الاضطراب ما بعد الصدمة).
فظهرت أمامها مجموعة من المعلومات، فاختارت تقريرًا لمنظمة الصحة العالمية يتحدث عن هذا الاضطراب:

تقول منظمة الصحة العالمية إنها مؤخرًا قد أوردت مرضًا نفسيًا ضمن قائمة الأمراض ووضعت له تصنيفًا معترفًا به، إنه مرض (اضطراب ما بعد الصدمة) PTSD، يصاب بهذا المرض من يتعرضون أو يشهدون مواقف مجهدة نفسيًا لدرجة كبيرة أقوى مما يمكن لهم أن يستوعبوه.

فبعض الناس يستطيع تخطي الرعب الذي تعرض له، أما بعضهم الآخر فيقع في براثن اضطراب ما بعد الصدمة، وقد يظهر ذلك الاضطراب بعد الصدمة بعدة أشهر أو قد يتأخر لعدة أعوام في ظهوره.

ارتجفت يد جمانة الممسكة بكوب الشاي عندما قرأت أنَّ الاضطراب قد يظهر بعد عدة سنوات من التعرض لتلك الصدمة، وراحت تُحدث نفسها بالعدد الذي يمكن أن يكون هائلًا لو كانت لدينا إحصائيات صحيحة، وكم من الناس ستظهر لديهم تلك الحالة النفسية العصيبة بعد تعرضهم لصدمات الاغتصاب والانفجارات، أو هؤلاء الذين شهدوا مواقف مرعبة مثل قتل ذويهم وقطع رؤوسهم أمام أعينهم.

مرة أخرى حاولت جمانة أن تركز وتكمل قراءة المقال:

يصيب هذا الاضطراب الناجين من حالات الحرائق والكوارث والاغتصاب، وهو أحد اضطرابات القلق فيعاني

من وقع فيه من نوبات ضيق وهلع واضطراب النوم والتركيز وبعض السلوك العدواني وغيرها من كوابيس أثناء النوم واسترجاع للموقف المؤلم الذي تعرضوا له.

أغلقت هاتفها وهمت بالعودة لعملها وهي تفكر بأشياء كثيرة متناثرة مثل:

الدنيمارك هو أسعد شعب في العالم، وكندا سجونها خالية من المجرمين، وأميركا هو الشعب الذي يعبر عن رأيه بكل حرية, واليابان أصبحت وكأنها تعيش في كوكب آخر متطور عن كوكب الأرض بملايين السنوات, والعراق بلد الحروب والمقابر الجماعية وتناحر الطوائف فيما بينها وبلد يستقبل صباحه بانفجار سيارة ملغمة وينهي يومه بإرهابي يفجر نفسه وسط الناس كي يتناول إفطاره طازجًا مع رسول الله في الجنة.

(24)

في ليلة من ليالي شهر كانون الثاني الشديدة البرودة كانت جمانة تجلس في غرفة الطبيب المناوب في طوارئ المستشفى تستقبل بعض الحالات المرضية الطارئة بعد منتصف الليل، عقدت شعرها البني المتموج الطويل كذيل حصان يتدلى على ظهرها، ولونت وجنتيها وشفتيها باللون الزهري الباهت الذي كانت تحبه، زرّت معطفها الطبي الأبيض فوق ملابسها، حيث كانت ترتدي سروالًا أسودًا وبلوزة زهرية اللون، فيظهر قوامها الممشوق يفيض أنوثة ونعومة، وتنتعل حذاء رياضيًا أسود كي يساعدها على التنقل بخفة وسرعة.

دخل رجل في الأربعين من عمره يرتدي نظارات طبية ويشوب شعره المصفف بعض الشعرات البيضاء، يرتدي سروال من الجينز وحذاء رياضيًا وبلوزة قطنية زرقاء قد رفع أكمامها إلى فوق، كان يبدو بمظهر شبابي بسيط ينم عن ذوق وأناقة ورُقي.

كانت وسامته واضحة ولا زالت عضلات ذراعيه مفتولة وصدره عاليًا مثل شاب في العشرين، لكنه كان منزعجًا من

نوبة ضيق في التنفس أرقت مضجعه ومنعته من النوم طيلة الليل رغم أنه تناول كل ما تحت يديه من الأدوية.
نظر إلى جمانة بنظرة المفاجأة والدهشة، ثم ألقى التحية:

- مساء الخير.. كيف حالكِ دكتورة.

رفعت بصرها.. تأملته قليلًا وكتمت في صدرها فرحة لا تريد أن يعرف سببها أحد، ثم تمالكت نفسها وتصنعت الهدوء وقالت:

- أهلاً نبراس.. يا للصدفة.. لم أركَ منذ عشرين عامًا.. كيف حالكَ، وكيف زوجتكَ وأولادكَ.
- الحمد لله. قد تكون هذه أول مرة نتحدث فيها يا جمانة... فلطالما كنتِ قليلة الكلام..
- سابقًا.. أما اليوم فأنا ثرثارة جدًا.

غيّرت الحياة تلك الانطوائية فأصبحت الآن أكثر مرحًا، صقلت الأيام والآلام شخصيتها، وخرجت قوتها الداخلية لتضفي على مظهرها الخارجي جمالًا وألق،
لا سيما بعد أن عاشت مرارة الأيام التي تبعت زواج نبراس وفقدها له إلى الأبد، ودفن حبًا لم يرَ النور ولم يعرف به المعشوق يومًا.

طوال تلك السنوات كانت تعترف لنفسها أنها أحبت حبًا ملعونًا من طرف واحد من طرفها هي فقط.. كانت متأكدة أنها لا تعني له شيئًا ولا تخطر له على بال.

جاء نبراس وهو يعاني من نوبة شديدة من نوبات مرض الربو القصبي الذي أصيب به منذ قرابة خمسة عشرة سنة، سهرت جمانة إلى جانبه طوال الليل تحقنه بالأدوية وتراقب حالته، تمسك القناع الذي يضخ الأوكسجين بيدها وتضعه على فمه وتراقب صدره وهو يعلو ويهبط بصعوبة بالغة بسبب نوبة الربو تلك، وتتأمل عينيه المتعبتين كأنها تتأمل وجه طفلها الحبيب.

وعندما تحسن عند الصباح أوصته بأن يتصل بها إن عاودته تلك النوبة مرة أخرى وسوف لن تتأخر عن مساعدته أبدًا.

شكرها ومد يده ليصافحها، ولأول مرة تلمس يدها يديه، أحست بشرارة تسري في جسدها وإحساس لم تذق طعمه يومًا، أججت لمسته حرائق قضت جمانة نصف سنوات عمرها محاولة إخمادها.

ودّعها وذهب...

لكن ما من شيء في العالم هو وليد المصادفة... لا ليس للصدف من وجود.

إنها أشياء تحدث بترتيب زمني نجهله... إنها علامات لأشياء سوف تحدث لا ندري ما هي.
عبثًا نحاول قتل حب تملّكنا وعاش فينا وتغلغل في شراييننا كما تتغلغل جذور الأشجار في التربة.. عميقًا.. عميقًا... لن نستطيع اقتلاعها.
لا..لا تحاول اقتلاع جذور حب عميق... لأنك ستتألم دون جدوى... تعوّد فقط أن تعيش معه و به.. تعوّد أن تتأقلم مع الخيبات وحرائق الأشواق... ستعتاد.
سيكون شيئًا جميلاً من كيانك.. ستشعر أنَّ عمرك لم يذهب سدى... وأنكَ ذقت الحياة وعشتها كما يجب وكما لا بُدَّ لها أن تكون.
فلا يوجد أتعس من شخص عاش سنوات عمره دون أن يذوق طعم العشق... دون أن يرى من خلال نظاراته السحرية.. لأنه سيعيش حياته وهو مقيد للأرض.. مشدود للواقع.. لن يدخل عالم الأحلام...عالم السحر والجنيات...عالمًا يجعلك تعيش الفصول الأربعة في يوم واحد... فتنتفض وريقات روحك وتتساقط كما تتساقط أوراق الأشجار في الخريف.. تنتفض أمام ألم الفقد والغياب... وتتجمد وحدة وغربة من البعد والهجر فتكسو وديان روحكَ الثلوج وتعصف بكَ الأعاصير... ثم ترجع

إليكَ الروح وتسري الحياة في عروقكَ عند اللقاء... ستشعل النظرات الحرارة في طيات روحك المتجمدة... فتورق مرة أخرى وتتفتح البراعم فيكَ...

مد وجزر... قرب وبعد... هلاك وحياة... أمل ويأس... كل ذلك ستجده إن أحببت... كل شيء له طعم مختلف.. مذاق آخر غير الذي تعودت عليه...

الألم أقسى... والضحكات أجمل... حتى الطعام سيكون له مذاق آخر لو تناولته مع من تحب... اللمسات لها إحساس آخر...

ستأخذك لمساته وترتفع بكَ إلى السماوات... إلى كواكب أخرى.. إلى عوالم لم ترها ولن ترها إلا معه.

مع الحب.. كل شيء مختلف..

كل شيء أجمل.. وأعمق... وأكثر جنونًا..

ما نفع يومٍ لم تعشق فيه؟ ما نفع عمر لم تشتعل وتخبو كل يوم فيه بحرارة اللقاء ووحشة الفراق؟

أحدثَ ذلك اللقاء الذي كان مفاجئًا للاثنين معًا تغيّرًا في طبيعة العلاقة بين نبراس وجمانة، بعد أن كان يرى أحدهما الآخر من مسافة بعيدة وكل واحد منهما يسأل نفسه.. ما الذي يشدني إليك؟

ولدت الآن بينهما علاقة جديدة أشبه بالصداقة.. كانا يتصلان ببعضهما بفترات متباعدة كأصدقاء.

وأصبحت الطبيب المفضل لديه.. حتى لو أصيب بزكام بسيط يرفع الهاتف ويبدأ بسؤالها والحديث معها.. كان يحب حديثها لكنه لا يعرف لماذا.

لماذا يزداد أعجابًا بها يومًا بعد يوم.. لماذا يتعلق بصوتها وعينيها وتأخذه ابتسامتها لعالم هجره منذ عشرين عامًا.

عالم الأشواق.. الذي استراح منه منذ زمن بعيد.

لم يكن يصدق أذنيه وهو يستمع لأحاديثها المشوقة عبر الهاتف كفراشة، كجنية، كعصفورة رائعة.. إنها مليئة بالحب والحياة والطفولة.

هل هذه فعلاً هي جمانة؟

كان يهمس لنفسه غير مصدق كيف؟

هل يعقل أنَّ تلك الفتاة الساكنة الباردة قد كانت بكل تلك الحرارة والروعة ولم انتبه لها يومًا؟

كانت الأحاديث الهاتفية والرسائل النصية والألكترونية مستمرة بينهما لأشهر دون ملل.. يثرثران بكل شيء.. كصديقين.. يتبادلان المزحات والذكريات.

سألته عن ماضيه.. تجرأت وسألت عن قصته مع نغم.. حاول أن يجيبها بعد تأمل طويل.. أخبرها بكل ما حدث.

ولكونها سمعت بقصته مع حبيبته نغم من سمراء التي كانت إذاعة متنقلة للأخبار إلا أنها أحبت أن تسمع منه القصة كاملة.

سألته بفضولٍ ظاهرٍ.. وبألم غير ظاهر.

- هل ما زلتَ تعشقها؟

لحظات من الصمت التام.. حتى أنها ظنّت أنَّ الاتصال الهاتفي قد قطع، ثم جاءت الإجابة بصوت رخيم متزن:

- كلا.
- وهل تحب زوجتك؟

سؤال فضولي آخر..

- هي تحبني جدًا.. إنها طيبة القلب.. وأنا مرتاح في حياتي معها ولا شك أني أحبها. وأنتِ يا جمانة.. لماذا لم تتزوجي؟
- أنا... أنا.. لا أعرف... قد أكون انشغلت بعملي ولم انتبه أنني بقيت دون زواج.

تهربت من الجواب بتلك المزحة وبادلها هو الضحكات. لم تستطع أن تقول الحقيقة.. فكيف تخبره عن حب لم يعرف به

يومًا، فقد يظنها مجنونة، هل تقول له إنه حب عمرها مذ كانت في السادسة عشر تتفتح كالأزهار،
وحتى لو أخبرته... ما فائدة كل ذلك الهذيان الآن.
فالرجل متزوج ولديه عائلة.
لكن ظهوره من جديد في حياتها قد أشعل حريقًا طالما حاولت إخماده في قلبها،
قد أزاح التراب عن اسم نقش في قلبها كما تنقش الأسماء على الحجر.
فما ينقش على الأحجار لن يمحى.. وما يحفر في القلب منذ الصغر لا يمكن أن يزول.
فهناك من يسكنون ذاكرتنا رغمًا عنا.. ويتخذون من قلوبنا أوطانًا لهم.
إنهم محتلون.. يحتلوننا رغم إرادتنا.. فنرحب بهذا الاحتلال.. ونفرش لهم الدرب بأزهار الياسمين.
لا أحد يعرف ما الذي كان يحدث في قلب نبراس الذي استقال من الحب منذ زمن بعيد، حتى هو لم يستطع تفسير ما يشعر به.
إنه يريدها.. يشتهيها.. يريد احتضانها.. إنه يشتاقها.

(25)

في أحد الأيام فكر نبراس أن يتصل بجمانة ويدعوها لشرب فنجان قهوة معه.

- ألووو.. جمانة؟ أنا قريب الآن من مكان عملكِ.. فقد حدث أن كان لدي عمل مهم مع أحد الأصدقاء بخصوص إجراء بعض التعديلات على أحد النصوص الموسيقية التي عملناها معًا لحفل خيري، فوجدتُ نفسي قريبًا منكِ وخطر لي أن أدعوكِ لنتناول القهوة معًا.. ما رأيكِ؟

كاد قلبها يقفز خارج أضلاعها من شدة الفرح، فهي لم تعد تريد شيئًا من هذه الدنيا سوى أن تسمع صوته أو أن تراه، هي تعلم جيدًا أنه لم يكن لها يومًا ولن يكون يكفيها فقط أن تتكلم معه.. يتحادثان.. يضحكان.. فبوجوده فقط حتى لو من غير المسموح لها بلمسه أو احتضانه لأنه ملك امرأة أخرى، بوجوده هكذا فقط في حياتها يجعل أيامها مختلفة.
فهي قد أدمنت صوته على الهاتف كل يوم.. ورسائله الألكترونية على هاتفها كل صباح تلون صباحها بكلمة (صباحوو جمانة الغالية).

ردتْ عليه بصوتٍ ناعم يتدفق عشقًا:

- نعم.. فكرة رائعة.. سأوافيكَ إلى هناك حالًا.
- اتفقنا.. وأنا بانتظاركِ.

أتتْ بعد عشر دقائق إلى مطعم قريب من المستشفى الذي تعمل فيه.. كان نبراس في انتظارها.
دخلتْ ترتدي فستانًا زهريًا قصيرًا... يكشف عن ساقيها الممشوقتين.. و سترة بيضاء اللون .. نثرتْ شعرها البني المتموج فتدلى إلى خصرها.
أنوثتها ورقّتها لا تقاوم ولا يمكن إخفاؤها.
كان الشوق في عينيها تحتضنه أشواق عينيه، تعانقت نظراتهما فلا أحد منا يستطيع إخفاء ما تتكلم به روحه عبر عينيه.. إنها مرآة الروح.. عيوننا تفضحنا دومًا.
كان المقهى هادئًا وتنساب فيه أغنيات حالمة ورقيقة لصوت عربي يغازل الروح.. إنها (شيرين)، صوت يأخذكَ بعيدًا عن هذه الأرض.. إلى أرض الأحلام.

أغنية تنطق بكلمات كأنها كتبت لها... لجمانة... لعشقها وخوفها وارتباكها...
حبيتو بيني وبين نفسي... وما أولتلوش.. عل الي في نفسي..

ماعرفش إيه بيحصلي... لما بشوف عنيه..
ما بقتش عارفه أأولو إيه...ماعرفش لي خبيت عليه
بضعف أوي وأنا جنبو... وبسلم عليه..
الكلام لو كان يعبر عا لحنان... كنت قلت أني بحبك من زمان
كل يوم الشوق بيكبر.. عليه باااان...
أحيانًا لا ندري ما الذي يجري لنا... وماذا يعترينا بحضرة من نحب...
فنلوذ بالصمت.. علّه يترجم ما نشعر به.
كان يبدو المكان خاليًا.. إلا من فتاتين كانتا تجلسان إلى طاولة قرب النافذة ورجل وامرأة يجلسان في الجهة المقابلة، فالوقت لا يزال مبكرًا على زيارة المقاهي في هذه الساعات من النهار في بغداد... التي تكتظ عادة بعد الظهيرة وفي المساء.
كانت نظرات نبراس تلتهم جمانة التهامًا من قمة رأسها حتى قدميها... نظرات محمومة مفعمة بالحرارة والرغبة.
حضر النادل ليأخذ الطلبات، طلبا قهوة تركية متوسطة السكر... وقطعة من الكنافة
قال لها:

- جمانة تأملي قبل أن تشربي قهوتكِ، تخيلي غليانها على مهل وهي تصطلي وتتقلب صابرة على لهب النار والاحتراق حتى تنضج. تأملي قتامة لونها وشدة سوادها الذي يذكرك بثقل أيام الفقد والحزن... تأملي ذلك العطر الذي يفوح منها فتدمنيه مع كل فنجان ترتشفيه صباحًا فلا تستطيعين مفارقته بعد ذلك.. ذلك الإدمان الذي يشبه إدماننا على من سكن قلوبنا وتملَّك الروح.. وكأن لا حياة دونه ولا حياة بعده.
- موسيقي وشاعر أيضًا! لم أكن أتصور أن تكون مرهف المشاعر إلى هذه الدرجة يا نبراس.
- ليس شعرًا هذا يا جمانة، بل هو أحد أسرار القهوة، فمثلما للموسيقى أسرار للقهوة أسرارها لكن إن أعجبتك فكرة أن أكون شاعرًا فاسمعي إذن هذا: تقول فيروز:

وشك ما كان يفارقني... جرب أسبح ويغرقني.. وبثلج الماضي يحرقني.

أو اسمعيها وهي تقول (حبيتك تنسيت النوم... ويا خوفي تنساني) ... و(أنا عندي حنين ما بعرف لمين). كلمات بريئة وتلقائية لن تجديها في مكان آخر... لحن ناعم يتغلغل في مسامات جلدكِ فيلتصق بالروح

ويأخذها لعالم لم تعيشيه من قبل... صوت ملائكي ناعم يقول لكِ أنَّ هناك أشياء لم يصفها أحد قبلها ولن تشعري بها إلا معها... فمن يمكن أن يصف حبًا مضى ودفن في حنايا القلب ولا زال يحرقنا حنيننا إليه كما وصفته هي (يحرقني)! صار ماضي وثلج ولا زال يحرق!

- الله يا نبراس... ما أرق إحساسك.

ارتشفا القهوة الساخنة، كانت الأحاديث تجرهم مرارًا إلى الماضي والذكريات، قال لها بعد لحظة من الصمت:

- جمانة.. هل تعرفين لِمَ لم أكن أتحدث إليك سابقًا؟ مع أنكِ غالية على قلبي جدًا صدقيني. جمانة.. سأقول لكِ شيئًا لم تسمعيه مني في الماضي. لم تسمحي لي بقوله... فلطالما كنتِ متجهمة صامتة.. يصعب على أي رجل أن يتحدث إليك، فقد كنتِ فتاة عملية مشغولة بالدراسة وكأنكِ لا تعرفين الحب ولا تسمحين لأحد بالاقتراب منكِ.. لكني كنتُ في الماضي معجب بكِ جدًا. أما اليوم يا جمانة.. اليوم وبعد سنة من صداقتنا هذه.. وأحاديثنا الطويلة.. فأنا أرى أمامي امرأة طالما حلمت بها وتمنيت وجودها

في خيالي. أنتِ يا جمانة الصورة التي رسمتها للمرأة التي تمنيتُ أن أتزوجها.. عيناكِ.. شفتاكِ.. شعركِ الرائع هذا.. قوامكِ الذي يفيض أنوثة ويقتلني ألف مرة.. ذكاؤكِ.. قوتكِ.. روحكِ المرحة.. أناقتكِ.. ذوقكِ الراقي... كل ما فيكِ يا جمانة... كل ما فيكِ أعشقه. جمانة.. أنا أعشقكِ حد الجنون.

- نبراس.. أنا لا أُصدق ما أسمع.. هل تعلم كم تمنيت أن أسمعك تنطق تلك الكلمة.. كم من السنوات حلمتُ أن أكون حبيبتك.. أشعر أنني في حلم لا أريد أن أصحو منه. نبراس.. قد أحببتكَ مذ كنتُ في السادسة عشر من العمر.. ودفنتُ حبكَ في قلبي سنوات عمري كلها حتى هذه اللحظة، فلطالما اعتقدتُ أنني لم أكن من النوع المحبب لديكَ من النساء.

- أحبكِ.. جمانة.. حبيبتي. حبيبتي! يا إلهي... كم حلمتُ بتلك الكلمة .. حبيبتي.. ما أجمل أن أكون حبيبتكَ.. يا قلب جمانة. لكن وأنا أسمعكَ الآن تنطقها يكاد قلبي يتمزق من الحزن يا نبراس؛ لأنها قد أتت متأخرة جدًا... نطقتها وشعرتُ بها بعد أن ذهب العمر وأصبحتَ رب عائلة الآن.. زوجة

وأولاد... ليس لي مكان في حياتكَ يا نبراس... لم يعد لي مكان أبدًا، لن أسمح لكَ بالتفوه بتلك الحماقات. جمانة حبيبتي العمر كله أمامنا.. لن أستطيع العيش دونكِ بعد أن عثرتُ عليكِ. ولأن الحياة لا تمنحنا أحيانًا فرصة ثانية لذا علينا أن نتقبل الهدايا التي يقدمها العالم إلينا، وعلينا أن نعيش اليوم كأول وآخر يوم في حياتنا.

حلقا عاليًا في السماء مثل النوارس البيضاء... عاشا أجمل قصة حب لأربعة أشهر.

بعد ذلك اللقاء الذي كان اعترافًا بالماضي والحاضر.. وغير مبال لما سيحدث في المستقبل، وكأنَّ الحياة تنتظر أن تتأزم الأوضاع كي تثبت براعتها وتغدق عليهما هباتها في اللحظات الأخيرة.

فعندما نعشق حد الجنون لن نرى سوى اللحظة.. سوى حرارة الأيدي المتشابكة...

كانت تستيقظ كل صباح على رسالته المعهودة لكن أصبحت بلغة أخرى..

- (صباحووو.. حبيبتي).

فترد عليه برسالة صباحية تلون بها يومه:

- (صباحووو حبيبي.. يا روح جمانة أنت).

كانت الأشواق تتزايد... فتفيض..
والسعادة والأغنيات تملأ روحها... كأنها طفلة... كأنها وردة تتفتح بوجه الريح فتنثر الرياح وريقاتها لتملأ الجو عطرًا وعبيرًا..
فتطير في الرياح مبتهجة غير مبالية حتى لو كان في ذلك حتفها...
صارت تبدأ صباحها بالعزف على خيوط الشمس المتسللة عبر نافذتها صباحًا.. وتحلق نحو النجوم مساءً... فتتلألأ برقصة ليس لها انتهاء...
يقول زوربا اليوناني (عندما يمتلئ القلب بالحب وبالمشاعر ينفجر.. والرقص هو الشيء الوحيد الذي يوقف الألم).
نرقص عندما نحب... عندما نفرح... عندما نحزن..
نرقص مع الحياة عندما تعزف ألحانها... أيا كان اللحن الذي تعزفه.. حتى لو كان لحنًا جنائزيًا... فلا بُدَّ أن يكون له إيقاع.. ورقصة خاصة للحزن.
قال لها يومًا:

- حبيبتي.. قد لونتِ حياتي، لم يكن لأيامي معنى قبل أن تشعلي النار في قلبي، فمنذ زمن يا جمانة وأنا لم أذق طعم الحب. لكني لا أستطيع العيش هكذا حبيبتي، إنَّ بعدكِ عني يكاد يقتلني. أريدكِ يا جمانة.. فلنتزوج.
- ما تقوله غير ممكن أبدًا. لديكَ عائلة وزوجة تحبها.
- أحبها كزوجة وليس كحبيبة.. إنها الأيام والعشرة يا جمانة.. لكن حبيبتي هي أنتِ.
- لا أريد سوى أن أراكَ وأن أكتب إليكَ وأسمع صوتكَ فهذا يكفيني.
- لكنه لا يكفيني أنا. افهميني يا حبيبتي، أنا أكاد أجن ببعدكِ عني هذا، إنها نار تحرق أحشائي. اسمعيني يا جمانة إما أن نقترب ونلتحم معًا كشخص واحد وإما أن نُنهي كل ما بيننا.
- لا.. لا أستطيع أن أحتمل بعدكَ عني.
- فلنجرب البعد إذن.. لن نتحادث لمدة أسبوع، من يدري ربما نرى أننا قادرون على البعد.

تركها مصدومة بما قاله وذهب.. وهل القسوة غريبة عليه!

فمع أنَّ نبراس كان طيب القلب إلا أنه كان قاسيًا كالصخرة في مواقف كثيرة.
أسبوع كامل من العذاب لم تكن قادرة على احتماله، وهي التي احتملت سنوات طويلة من ابتعاده وفقده، كيف أصبح اليوم أسبوعًا واحدًا صعبًا عليها هكذا؟
هل لأنها سمعت صوته يهمس لها حبيبتي؟
هل لأنها لمست يديه؟ و ذاقت حرارة قبلاته؟
لم تستطع أن تلتزم بشرطه.. أرسلت له رسائل صباحية ومسائية،
لم يرد على أية واحدة منها، مارس القسوة بكل مهارة.
بعد أن انتهى الأسبوع، أصبحت جمانة على حافة الجنون.
أفقدها كل ذلك الحب إرادتها.. لأول مرة تشعر بكل هذا الضعف.. فكتبت له:

- نبراس حبيبي.. أكاد أموت من بعدكَ عني.

اتفقا على أن يتزوجا سرًا... كان رأيها أن يبقى زواجهما سرًا كي لا تسبب مشاكل لزوجته وأولاده، لكنه قرر أن يتحمل تلك السرية بعض الوقت فقط.
قال لها:

- لا أريد أن أكون كالسارق يا جمانة، ستكونين زوجتي، وسأحاول أن أشرح لزوجتي الأولى وأولادي بحاجتي إليكِ. فأنا أريد أن أعيش معكِ حياة طبيعية ولا أحب الاختباء.

كان يتكلم بكل ثقة وقوة، يصعب معها أن يشك أي إنسان في صدقه أو تراجعه يومًا ما.
تزوجا في يوم ربيعي جميل سرًا، لم يشاركهما أحد فرحة عمرهما سوى الفراشات وأزهار الربيع المتفتحة توًا.
كانت جمانة تسكن في بيت صغير بعد أن توفيت والدتها وظلت وحيدة في بيت الأسرة والذي تم بيعه من قبل أخوتها بعد دفن الأم المسكينة بشهرين فقط.
لم يفكر أحد من أخوتها أو أخواتها بحالها وأين ستسكن أو مع من تعيش، لم تأخذ جمانة وقت طويل في التفكير بل حزمت حقائبها واستأجرت بيتًا صغيرًا ذا طراز حديث وسكنت فيه وحيدة.
كان البيت مكونًا من غرفتين للنوم وغرفة للمعيشة، وباحة صغيرة أمام الباب الخارجي وضعت فيها جمانة عددًا من الأوعية الفخارية وزرعت فيها أزهار الكاردينيا البيضاء، كانت تعتني بها كأنها تعتني بأطفالها.

فالكاردينيا زهرة رقيقة من عائلة الياسمين لا تحتمل حرًا ولا بردًا، تصاب بالضعف سريعًا وتصفر وريقاتها البيضاء الناصعة وتتساقط، هكذا هي الأزهار الرائعة كالأشخاص الرائعين سريعي العطب والتلف عند تعرضهم للإهمال وقلة الاهتمام ينطفئون بصمت ويخبو بريقهم وفرحهم بصمت أيضًا.

قامت جمانة بتأثيث وفرش كل غرفة في بيتها بلون خاص، فطلت جدران غرفة المعيشة باللون الأزرق الباهت ووضعت فيه أريكة فضية اللون يقابلها مقعد أزرق وثير، وتوسطت المكان طاولة خشبية مطلية باللون الأبيض وضعت عليها جمانة مزهرية دائرية من الكريستال رتبت فيها باقات من أزهار الياسمين بعناية فائقة، كانت الجدران تمتلئ باللوحات الفنية ذات الألوان الربيعية وهي عبارة عن لوحات من الفن التشكيلي وصور لأزهار ومناظر طبيعية.

استخدمت جمانة غرفة واحدة من غرفتي النوم وتركت الأخرى خالية، كانت جدران غرفة نومها مطلية باللون الزهري الفاتح، يتوسط الغرفة سرير واسع بمفارش وأغطية بيضاء وزهرية اللون ووسائد ناعمة ملساء.

أسدلت ستائر من القماش المخملي الزهري على النوافذ وقد سحبتها إلى الجانبين ليدخل النور وتتسلل أشعة الشمس من الستائر الداخلية الحريرية الشفافة، وفي ركن واسع من الغرفة

وضعت جمانة طاولة مستديرة وغطتها بمفرش من الساتان الأبيض ينسدل بنعومة ويتدلى ليلامس الأرض، ووضعت عليها إناء بلوري وملأته بأزهار الكارديني البيضاء، ففاح عطرها وعبيرها ليملأ الأركان والزوايا بعبق حب ظل حبيس القلب لسنوات طويلة.

علقت جمانة على الحائط المقابل للسرير لوحة كبيرة لأزهار التوليب محاطة بإطار فضي اللون، كانت لمساتها واختياراتها لألوان الأثاث والأزهار والجدران تفضح وحدتها وحبها وروحها الحالمة.

فاللون الأزرق الفاتح هو لون من يشعروا بالوحدة، إنه عميق بعمق السماء وضياعنا فيها.. و وحيد مثل نهر منعزل يجري بين الوديان البعيدة.

أما هؤلاء الحالمون.. فيعشقون تدريجات اللون الزهري.. إنه يشدهم إلى عالم سحري لقلوب تفيض بالحب... وتنبض بالفرح.

قال لها وهو يمسك يدها ليدخلا محلاً للحلويات يشتريان منه بعض قطع الحلوى لسهرتهما الأولى كزوجين.

- هل تصدقي يا جمانة أنني أشعر وكأني أتزوج للمرة الأولى، فرحتي اليوم لا يكاد يسعها قلبي.. أنا أعشقكِ بجنون.

ارتدت جمانة في ليلة زفافها فستانًا أبيض قصير مكشوف الذراعين.. كانت تنتظره في بيتها وحيدة، فقد تعودت أن تحزن لوحدها وتفرح لوحدها.

دقات قلبها تضرب بقوة.. فهي لم تكن تتخيل أن تكون يومًا زوجة لأغلى إنسان على قلبها.. في حلم هي أم يقظة... أيعقل أن تتحقق أمنية مستحيلة لتصبح واقعًا!

أيمكن أن يتحول ذلك الجرح الغائر إلى فرحة العمر وسعادة أبدية؟

حتى لو كانت فرحة خرساء.. فرحة حبيسة صدرها لا تجرؤ أن تخبر بها أحد.

سعادة ليست كاملة.. بعد أن عاش نبراس نصف عمره في أحضان امرأة غيرها،

هل كان يجب أن تقاوم ذلك الحب الذي نما في قلبه بعد طول انتظار؟

هل تلك أنانية منها أن تستجيب لحب رجل متزوج وتوافق على الزواج منه؟

كانت الأفكار تضرب في رأسها وتعصف بها في كل اتجاه فتسرق فرحتها.. حين قطعت عليها صوت طرقات نبراس على الباب الخشبية للبيت أفكارها تلك.

طرقات حب عذبة... كان يعزف لها موسيقى حب على الباب بقبضة يده.

وقف أمامها مذهولاً مأخوذًا بجمال طلتها.. حملها بين ذراعيه ودار بها في الغرفة.

- أنتِ ملكي... زوجتي.. أحلمٌ هذا يا جمانة؟
- بل هو حلمي أنا يا حبيبي.. حلمي المستحيل الذي تحقق بعصا القدر السحرية.
- أي سحر هذا الذي تتكلمين عنه... وهل هناك سحر كسحر عينيكِ هاتين، إنهما يسكرانني دون خمر فأنتشي بهما. هل تعلمين ماذا فعلت بي عيناكِ يا حبيبتي؟
- ماذا؟
- سحرهما يشبه ذلك السحر المنبعث من لوحة رسمها ليوناردو.. إنها لوحة (ترقرق المياه).
- وماذا تعني تلك اللوحة؟

- حجر يرمى في بحيرة فتنبعث منه دوائر صغيرة وتكبر وتتوالى وتتسع، فحجر صغير رمي في تلك المياه الهادئة الراكدة منذ زمن زلزل كيانها.. هزّها وأيقظها، فهاجت وراحت الموجات حول الحجر تتسع وتكبر وملئت البحيرة بأكملها. السحر المنبعث من عينيكِ أيقظ روحي الساكنة الراكدة منذ زمن بعيد.. منذ سنوات وروحي راكدة في مكانها لم تهتز ولم تنتفض. ماذا فعلتِ بي يا جمانة؟ كيف أيقظتِ قلبًا مات وجفَّ منذ سنوات بعيدة!
- لا...

أرادت أن تتكلم، فأسكتها بقبلة محمومة... فهو لا يريد الآن أن يستمع سوى إلى دقات قلبيهما في صدريهما المتلاصقين وهي تعزف سيمفونية أغرب حب عاشه.
غرقت بين أحضانه في ليلتهما الأولى، قبَلها من رأسها حتى قدميها.. كان يُقبّل كل شبر في جسدها، ومع كل قبلة كان يهمس في أذنها.. أحبكِ.

- كم أنتِ جميلة يا حبيبتي.. كنتُ أظنُّ أني سأطفئ النار في قلبي عندما آخذكِ بين ذراعي، لكن أنوثتكِ تشعلني نارًا لا تنطفئ، كما أني لم أشعر طيلة زواجي

مع زوجتي الأولى بمثل تلك اللذة التي أشعر بها معكِ.

نظرت بخجل إلى عينيه اللتين تعشقهما.. وهمست له:

- كل ما تشعر به معي هو بسبب حبي وجنوني بكَ.

كان يأتي في الشهر الأول من زواجهما إلى بيتها كل يوم يقضيان ساعات معًا.. يخرجان أحيانًا لتناول الغداء أو العشاء.

ثم اتفقا على ثلاثة أيام في الأسبوع يأتي لزيارتها، وبالطبع لم يكن يقضي الليلة عندها، فزواجهما كان سرًا ولا بُدَّ أن يكون متواجدًا في بيته مساءً كي لا يشعر أحد بما يحدث.

وفي يوم عيد ميلاده، ذلك اليوم الذي كانت تذرف فيه الدموع كل سنة دون أن يشعر بها أحد، كانت تأتيها الأخبار عن اجتماع عائلي للاحتفال بعيد ميلاد نبراس فتتظاهر أمام الجميع بأنَّ تلك الأخبار لا تهمها من قريب أو بعيد، لكن هذه السنة فقط ستبتسم وهي تحتضنه بين ذراعيها فقد أمست جزءًا من حياته وعائلته.

اقتنت له هدية الميلاد.. ساعة بجلد أسود من ماركة راقية وغلفتها بأوراق زرقاء اللون الذي يحبه.

كان احتفالهما بيوم ميلاده قبل يوم واحد من يوم الميلاد؛ لأنه سيقضي ليلة عيد ميلاده في احتفال العائلة المعتاد وهذه من مساوئ الزواج السري، فلا فرح بالعلن ولا حزن علني، لم تكن جمانة تنزعج أو تمانع فقد كانت متفهمة جدًا لوضع نبراس الاجتماعي.

استقبلته في بيتها في الساعة الثامنة مساءً.. كانت الطاولة في غرفة النوم مزينة بالأزهار وقالب كعكة الميلاد والشموع الملونة.

طبعتْ قبلة دافئة على وجنتهُ وهمستْ له في أذنه:

- كل عام وأنتَ حبيبي. لا أعرف هل ستعجبكَ هديتي أم لا.. تفضل.
- لماذا اقتنيتِ هدية يا جمانة؟ صدقيني لا أحتاج من هذه الدنيا سواكِ.
- افتحها فقط.. وقل لي ما رأيكَ؟
- حسنًا... إنها رائعة... لديكِ ذوق عال حبيبتي. شكرًا لكِ يا أجمل هدايا الله لي.

قضيا معًا ليلة حب بشوق لا ينتهي كالمعتاد... ففي كل لقاء لهما يكون الشوق أكبر من اللقاء الذي سبقه.

لم يناما في تلك الليلة بل بقيا يتبادلان الأحاديث الطويلة.. قصَّ لها عن مغامراته العاطفية القديمة وعن أسفاره لعدة دول أوربية.

قصَّ لها عن رحلته إلى هولندا وأخبرها عن جمال الريف الهولندي الذي يشبه الخيال أو لوحات فنية مرسومة بخيال فنان وليست حقيقة.

انتبه خلال حديثه إلى لوحة أزهار التوليب المعلقة على الجدار.. كانت لوحة كبيرة محاطة ببرواز فضي اللون.

- أليست هذه أزهار تسمى التوليب يا جمانة.. أعتقد أنني رأيتها كثيرًا في هولندا.. إنه موطنها الأصلي؟
- نعم.. إنها التوليب. لكن موطنها الأصلي هو تركيا وليس هولندا.. فالعثمانيون هم أول من زرع التوليب قبل أن تنتشر زراعته إلى الدول الأوربية، وهولندا من أكثر الدول زراعة لأزهار التوليب.
- لكن لماذا اخترتِ هذه اللوحة بالذات.. لماذا لم تقتني لوحة لأزهار أخرى؟
- لأنني من عشاق أزهار التوليب حبيبي.

- وما السبب... ما سر هذه الأزهار؟
- إنها أزهار تدل على الحب الصادق والأبدي.. وتسمى أزهار الرومانسية والجمال.. لديها صفة التميّز عن بقية الأزهار.. فهي تتحمّل درجات الحرارة المنخفضة جدًا.. أي أنها تقاسي البرد الشديد لكنها تستمر وتنمو، كما أنها تبقى نضرة وجميلة لفترات طويلة بعد قطفها.. لا يذبل التوليب بسهولة. إنها أزهار غريبة بشكلها وألوانها وأناقتها وعمرها الطويل.. فالتوليب يعيش لسنتين تقريبًا، هل رأيت أزهارًا تمتاز بكل تلك الخصوصية غير التوليب؟
- هل تعلمين حبيبتي؟
- ماذا؟
- إنها تشبهكِ.
- من هي؟
- أزهار التوليب تلك. مميزة مثلكِ.. تحتمل البرد والصقيع كما احتملتِ أنتِ الوحدة والألم ولم تذبلي، أنيقة الشكل كأنتِ. تعالي يا زهرتي.. أيتها التوليب النقي... أريدُ أن أشمَّ عطركِ الذي يحملني فوق الغمام، ذلك العطر الذي طالما أرّق مخدعي وأنا بعيد عنكِ.

وضعَ رأسه فوق صدرها كأنه طفل غلبه النعاس، فارتمى على صدرِ أمهِ وغطَّ في نومٍ عميق.

لم تتحرك جمانة بل ظلتْ ساكنة وهو يغفو فوق صدرها خوفًا من أن توقظه، كانتْ تتأمل سعادتها فقط وحلمها المستحيل الذي تحقق بعد أن مضى نصف عمرها واستسلمت لليأس، كيف تحقق في لحظة!

هل من ينام على صدرها الآن هو نبراس حقًا!

هل أصبحت الحياة كريمة معها فجأة!

تلك كانت الليلة الوحيدة اليتيمة التي باتَ فيها عندها، حيث أتيحت له تلك الفرصة التي لم تتكرر أبدًا، فقد كانت زوجته مع أولاده يقضون الليلة في منزل الجد بعد رجوعه من أداء العمرة.

لا توجد امرأة في الدنيا لا تشعر بأن زوجها قد أحبَّ أو على علاقة بامرأة أخرى، فالنساء لديهن حاسة غريبة في اكتشاف الأسرار وخصوصًا مع رجل مثل نبراس، فلطالما كانت زوجته تكثر من الشكوى وتثير المشكلات بسبب إلحاحه عليها في علاقتهما الحميمة، فهو رجل يشعر بالحاجة اليومية لتتواجد زوجته بين أحضانه، ولكنها كانت تعشق تواجدها في المطبخ وإعداد ألوان الطعام أكثر من أي شيءٍ آخر؛ لذا غالبًا

ما كانت تتهرب منه وتتركه ليغلب عليه النوم بحجة أنها تعمل في المطبخ وستأتي حالما تنتهي.
لكن كل ذلك قد تغيّر الآن، بدأت تلاحظ زوجته أنه غير مبالٍ لتهربها منه في الفراش، ولم يعد يطلب منها حقوقه الزوجية إلا كل أسبوع وهذا ليس من طبعه أو عادته، كانت تقول له مازحة لكنها تحاول أن تجد منه جوابًا لهذا التغيير.

- أراهن أنكَ متزوج من غيري يا نبراس.. فلم أعهدك غير مبالٍ هكذا!
- ألم تقولي لي كل مرة تزوج، فقد تعبت منكَ ولن أهتم إن تزوجتَ بأخرى؟

كان يحاول التلميح لها بأنه قد يتزوج يومًا.. يمازحها ليرى ردة الفعل وشدته.
كان يخطط كي يخبرها يومًا.. لكنه لم يكن يعلم أنها كانت تُخفي بركان غضب في أحشائها وهي تشعر بكل ذلك التغير في تصرفاته.

(26)

(ظننتهُ حُبًّا)

كلما كان يبتعد عنها خمسة أو سبعة أيام بسبب عملها وانشغاله هو، كان يقول لها أنه يكاد يجن من شوقه.
هاتفها وهو يهمس:

- حبيبتي... ما زال عطر جسدكِ في أنفي.. عالقًا في ذاكرتي.. لن أحتمل أن أفارقكِ أكثر، فأسبوع واحد هو جحيم طويل بالنسبة لي.
- ألهذه الدرجة تحبني يا نبراس؟
- لن تصدقي يا جمانة.. كم كنتُ أبحث طيلة سنوات زواجي الماضية عن امرأة أخرى لا أعرف من هي.. لكنّي كنت أشعرُ أنَّ هناك الكثير ينقصني.. وعندما التقيتُ بكِ اكتملت حياتي.. أصبحت أشعر بالاكتفاء.. اكتفيت بكِ يا جمانة.
- وأنا يا نبراس.. لم أكن أطمع في شيء من هذه الدنيا أكثر من حبكِ لي. كل ما كنتُ أتمناه هو أن أكونَ

حبيبتكَ.. حتى لو لم نتزوج.. وحتى لو اخترنا أن يبقى كل واحد منا بعيد عن الآخر بسبب ظروف زواجكَ.. صدقني ما كنت لأحزن.. كان يكفيني أنكَ تبادلني الحب.. الحب الذي كتمته في قلبي وشقيتُ به. فليس هناك أكثر إيلامًا من أن تحب شخصًا لا يشعر بكَ.. ولا يعني وجودكَ له شيئًا.

- جمانة.. حبيبتي.. قلبٌ كقلبكِ حفظ الحب بداخله طيلة عقود لا يمكن أن أفرط فيه أبدًا. فأي قلب هذا الذي تحملين في صدركِ يا جمانة؟ لم تحبني امرأة في حياتي كما أحببتني أنتِ... هل يمكن لأحد أن يصون حبًا لعمر كامل ويخبئه في حنايا صدره ويشقى به مثلكِ يا حبيبة القلب!

- هل تعلم يا نبراس.. هناك من يقول أنَّ الصداقة بين اثنين سوف تنتهي بعد أربع سنوات على وجه التأكيد، فإذا استمر الصديقان أكثر من أربع سنوات.. هذا يعني أنهما سيبقيان صديقين إلى الأبد. وأنا حملتكَ في قلبي ثلاثين سنة... كان خيالكَ معي وحولي... كل أغنية أسمعها أشعر أنها تتكلم عنكَ... كلما مررت بضفاف دجلة حيث كنتَ تسكن هناك، أشعر

أنَّ أنفاسكَ وعطركَ يسبق نسيم النهر ليحتضن قلبي وتفيض أشواقي.

- نادم أنا يا حبيبتي على كل لحظة أفنيتها بالبعد عنكِ.

لم تكن زوجة نبراس تشك في تصرفاته والتغيّرات التي تراها وتشعر بها فحسب، لكنها وجدت ما يؤكد شكوكها لتصبح يقينًا.. رسائل نصية على هاتفه كان قد بعثها لجمانة ونسي أن يقوم بمحوها.

فهمت الزوجة كل شيء، ودفنت غضبها لتعلنه في وقت لاحق.

في أحد الليالي كانا قد عادا توًا هو وزوجته من بيت والديها.. دخلا غرفتهما ليبدلا ثيابهما.. جلست الزوجة على حافة السرير وبدأت بحديثها بهدوء.

- أخبرني ولا تكذب عليَّ.. ما علاقتكَ بجمانة قريبة زوجة أخيكَ تلك؟

تلعثم من هول المفاجأة.. حاول أن ينكر أي علاقة له بها في البداية.. لكن بعد أن واجهته زوجته بموضوع الرسائل ذاك وسألته سؤالاً مباشرًا حادًا.. وضعه في موقف لا يحسد عليه، اعترف بالحقيقة.

- ما علاقتكَ بها... هل تخونني معها.. ما علاقتكَ بتلكَ الساقطة؟
- لا تقولي عنها ساقطة.. إنني متزوج بها.. تلكَ هي الحقيقة. إنها امرأة شريفة ومحترمة.. فلا تشكّي بأخلاقها.. ما بيني وبينها زواج لا شيء آخر مما في ذهنكِ.

قامت القيامة في بيت نبراس في تلك الليلة.. انهارت الزوجة من البكاء والصراخ وخرج هو مسرعًا من البيت؛ لأنها لم تطق رؤيته أمامها، ففي حالة غضب المرأة لا يمكن النقاش أو التفاوض معها على أمرٍ ما.. بل قد يكون أسهل عليك عقد اتفاق أو تفاوض مع قاتل أو مختطف رهائن من أن تتفاوض مع امرأة غاضبة.
قضى ليلتين خارج منزله في أحد الفنادق.. لا يكلم أحدًا.. حتى جمانة لم يرد على أي من اتصالاتها.
تركَ زوجته وأولاده المنزل، وأخبرته ابنته وهي تنتحب أنَّ أمها تريد الطلاق ولن تعود للمنزل مرة أخرى.
اتصال واحد قد أجاب عليه عندما لاحظ رقم هاتف ابنته هو من يتصل به:

- ألووو .

- نعم يا سارة.
- اسمع بابا... لقد تركنا البيت. ولن نعود إليه... إلا إذا قمت بتصحيح الخطأ الذي اقترفته بحق أمي. إنَّ أمي تقول لكَ إما أن تطلقها أو تطلق تلك المرأة. مع السلامة.. ولن أكلمك مجددًا.

ثلاثة أيام من التفكير والحسابات السريعة بعيدًا عن القلب والعاطفة.. قرر خلالها نبراس أن يزن الكفتين ويرى أيهما أثقل ليتمسك بها، وبالطبع كانت كفة الزوجة والأولاد أثقل وزنا.

مع أنه كان متأكدًا أنَّ تهديد زوجته له وطلبها الطلاق لم يكن إلا ضغطًا عليه ليطلق جمانة ليس إلا.. ولو أصَّر هو على موقفه ولم يطلق جمانة لأذعن له الجميع وتقبلوا الأمر الواقع كما هو.

لكن حمى الرغبة يبدو أنها قد انطفأت... وحالة الحب التي اعترته لأشهر قد زالت.

يبدو أنه لم يكن حبًا... لم يكن أكثر من (حالة حب) دورٌ نصاب به لمدة من الزمن كما نصاب بدورة رشح أو إنفلونزا...

وسرعان ما تختفي الأعراض ويعود كل شيء إلى ما كان عليه سابقًا، لذا من كان يجب أن تترك حياته ويتم محوها هي جمانة لا غيرها.

غالبًا تثور الثورات عند إخبار الزوجة الأولى بموضوع الزواج الثاني فيتفجر البيت كالبركان، وتكون الزوجة مصرّة على الطلاق خاصة إذا لم يكن هناك سبب قسري لذلك الزواج الثاني، فكيف يمكن لرجل مثل نبراس لديه زوجة مقبولة الشكل وربة منزل جيدة وأم لولدين وهناك قدر لا بأس به من التفاهم بينه وبينها أن يقدم على زواج ثانٍ.

وكيف يبرر لعائلته سبب ذلك الزواج، فالحياة الروتينية التي نعيشها لا تعترف بالأحاسيس والمشاعر إنها حياة مادية تقدر الملموس والموجود وتنسى القلوب وما يدفن فيها، لكن أي رجل يتخذ قرارًا كهذا لا بُدَّ أن يتحمل كافة تبعاته.

وما ذنب الزوجة الثانية أيضًا؟ قد يكون ذنبها أنها دخلت حياة رجل ليس لها... فهذا بالتأكيد ذنب لا يغتفر.

لكن ألا يتحمل الرجال مسؤولية ذلك القرار أيضًا؟

أسبوع كامل لم تسمع فيه جمانة صوت نبراس ولم تره، كان لا يرد على أي من رسائلها أو اتصالاتها، كادت تجن من خوفها وقلقها عليه، فكل ما حدث بينه وبين زوجته لم يخبر

جمانة به، اختفى من حياتها فقط.. وهو يضع خططه لإصلاح حياته مع زوجته دون أن يفكر ما الذي سيحدث لجمانة.

بعد أن قرر إصلاح ما أسماه خطأ لن يكرره وهو يعتذر لزوجته ويقبل رأسها ويرجوها لتعود معه إلى المنزل، عادت الزوجة والأولاد مع نبراس وقد قطع لهم وعدًا بأنه سيصلح كل ما أفسده، ويقصد من ذلك أن يطلق جمانة.

وكأنَّ ما أفسده كان كأسًا قد وقع من بين يديه رغمًا عنه وتكسر قطعًا قطعًا... ولم يكن قلب إنسان قد أحبه وخبأ حبه لسنوات طويلة كي لا يدخل حياته تلك عنوة.

وقد نسي تمامًا أنه هو من كان مصرًا على هذا الزواج وكم كانت جمانة مترددة بالموافقة عليه.

بعد أسبوع من القطيعة والجنون الذي كانت تعيشه جمانة وهي لا تعرف شيئًا مما حدث، رنَّ الهاتف يحمل اسم أحب إنسان على قلبها.

نبراس...

بيدٍ مرتعشة وقلب تحرقه اللهفة أمسكت هاتفها.

- الووو حبيبي.. أين أنتَ؟
- جمانة.. اسمعيني.. زوجتي علمت بكل شيء. زوجتي منهارة وتريد الطلاق، وأولادي لا يريدون

رؤيتي.. أشعر أنني دمرت حياتهم.. وكل ذلك لِمَ؟ من أجل سعادتي أنا فقط؟ كيف سأشعر معكِ بالسعادة بعد اليوم وزوجتي وأولادي يكرهونني.

- نبراس.. لكن هذا كان قرارك. أنتَ من أصرَّ على الزواج، وأكدتَ لي أنكَ تتحمل مسؤولية قرارك هذا... ثم من قال إنها ستتركك فعلًا.. لا بُدَّ أنه تهديد فحسب.
- جمانة.. قد اتخذت قراري.. لا بُدَّ أن نفترق.
- مستحيل.. ما الذي تقوله أنت.. كيف ستتركني.. قد أموت لو فكرت لحظة واحدة بفراقك.

تفجرت ببكاءٍ مرير رغم عنها.. صرخت به..

- أين ضميرك.. أين حبكَ لي.. وما ذنبي أنا.. نبراس.
- جمانة.. أنتِ طالق.

وأغلق الهاتف...

حاولت الاتصال مرة أخرى.. لم تصدق ما سمعت.. كانت الدنيا تدور من حولها..

لكنه كان قد أضاف رقم هاتفها خلال لحظات إلى قائمة الرفض.

انتزعها من حياته كما ينتزع قذارة ملتصقة بكعب حذائه.. هكذا وبكل بساطة..

كان حبه يشبه حلوى غزل البنات.. حلوة لبعض اللحظات ثم لا تلبث أن تختفي بالكامل.

أدار وجهه عن كل الذكريات.. تراجع عن كل حبه المزعوم.. تزوج سرًا... وطلق ببساطة.. وكأنَّ شيئًا لم يكن.. وكأنَّ قلبًا لم يكسر، وروحًا لم تطعن.. وحياة امرأة لم تعطه سوى الحب لم تدمر.

حقًا أنَّ هناك من يهدينا الألم بعد أن نهديه كل شيء.

اختفى تمامًا من عالمها وكأنه سراب، لم يفكر حتى بأن يتفقد ضحيته أو يعرف ما الذي جرى لها.

ذبحها بنفس السكين التي ذبحته بها نغم قبل عشرين عامًا.

سقط الهاتف من يدها وتدحرج على بلاط غرفة نومها وجلست هي على الأرض بعد أن شعرت بأنَّ الدنيا تدور من حولها، ماذا تفعل الآن؟ أو ما الذي جرى؟

إنها خائرة القوى.. محطمة الإرادة... تهطل الدموع من عينيها كأنها تهطل من غيوم سوداء مثقلة منذ سنوات.

كيف ستعيش دونه بعد اليوم..من سيملأ الفراغ الذي سيتركه في حياتها.. هل يمكن أن يكون خائنًا قذرًا هكذا وبكل بساطة؟

فكرت أن تنهي حياتها في هذه اللحظة... يكفيها ما عانته منذ أن ولدت حتى اليوم.. فهي الصديقة الدائمة للحزن والدموع، يبدو أنه صديق وفي ولا يريد تركها إلا بعد أن يراها جثة هامدة.

ثم أنها طبيبة وتعلم جيدًا كل طرق الموت دون ألم.. فتستطيع الآن أن تأخذ بعض العقاقير فيتوقف قلبها بصمت ودون ألم وتنتهي رحلة الحزن الطويلة هذه.

فيكفيها ما قاسته منذ أن ولدت، لكن يبدو أنها بالفعل لم تكن تريد أن تأتي لهذه الحياة، فقد اختبأت في رحم أمها طويلًا.. ففاتها آذار الذي يشبهها وتركها نيسان ولم ينتظرها، لكن يبدو أنَّ حتى رحم الأمهات لا يحب الجبناء.

فقد لفظها لتولد في أواخر أيام شهر ملتهب.. ولدت على حدود الفصول... بين صيف راحل وخريف قادم.. ولدت لتسير حافية القدمين تقطع الحياة وحيدة... فتنسلخ قدميها من جمر الصيف تارة... ومن جليد الشتاء تارة أخرى.

يقولون إننا أبناء الشهور التي ولدنا فيها.

فميلادها يقع على حدود الفصول وكأنما كتب لها أن تبقى حائرة تحمل حقائب الغربة أينما حلت.
فغربة الروح تلك أشد أنواع الغربة إيلامًا... تشعر وكأنكَ في بلد آخر أو كوكب آخر وكل ما يحيط بك غريب عنك، فلا أنتَ تعرف لغة الناس الذين يحيطون بكَ ولا تستطيع التعبير بلغتك لتطلب المساعدة لأنهم وبكل بساطة لن يفهموا لغتكَ.
كانت جمانة تجلس على الأرض تفكر بطريقة لإنهاء عذابها الذي طال أكثر مما ينبغي، وفي صدرها تختنق صرخة تريد أن تخرج.. كانت الصور تتلاحق وتمر أمام عينيها... كل الصور الحزينة والسعيدة.. فمرت أمامها صورة للوحة تسمى (الصرخة).. تلك اللوحة التي تشبه صرخة جمانة المختنقة في صدرها.
رسم تلك اللوحة الرسام أدفارت مونك وهي لشخص يصرخ بقوة فتخترق صرخته الطبيعة كلها وتنفذ إلى الآفاق تتردد أصداؤها، فلا يمكن عندها مقاومة الإحساس بالفزع والخوف الذي تحمله تلك الصرخة؛ لأن كل عناصر الكون تتضامن مع الألم المنبعث من قلب ذلك الصارخ.
لكن ومنذ آلاف السنين وعلى مر الحضارات واختلافها اعتبر الانتحار موضوعًا محرمًا، لا بل تدنيسًا لشرائع الديانات كافة

فالإنسان يناضل للبقاء على قيد الحياة لا ليموت وهي بالذات لا تريد أن تغضب الله بفعل كهذا، بل كانت تتمنى أن يمن هو عليها بأن ينهي حياتها اليوم وفي هذه اللحظة كي يرحمها من مستقبل أسود مجبرة على أن تعيشه بمفردها وهي تتلوى من ألم خنجر الكذب والخيانة التي غرسه أحب الناس في خاصرتها.

فجأة شعرت بألم حارق في صدرها كأنه سكين حادة النصل تمزق قلبها، وأحست أنَّ الموت يخطف أنفاسها كأنه موت من يدفن حيًا فيختنق ويختنق حتى لحظة النهاية.. هي تشعر أنَّ الهواء لا يدخل رئتيها، لكنها لا تزال تعي ما يدور حولها وبمقدورها رؤية الألوان والأشكال، لكنه الموت لا محالة، إنها تشعر به يلفح وجنتيها.

بعد لحظات فقدت التوازن وأصبحت الرؤية مشوشة أمام عينيها، ثم فقدت الوعي وارتطم رأسها بالبلاط البارد.

(27)

ولأن دومًا وأبدًا لا يمكن أن يترك الله أحد من خلقه دون أن يمد له يد العون في اللحظة الحرجة، كانت صديقة جمانة المقربة جدًا (مها) على موعد مع جمانة في نفس اليوم.

اتفقت معها أن تأتي ليتناولا العشاء خارج المنزل، وبعد إلحاح طويل من مها وافقت جمانة لكنها أخبرتها بأنها مرهقة جدًا وبحالة نفسية سيئة بسبب انقطاع أخبار نبراس عنها وموقفه الغريب منذ أيام.. فقد كانت مها مقربة جدًا لجمانة وتعلم بشأن زواجها من نبراس.

طرقت مها الباب عدة مرات دون أن تفتحه لها جمانة.. اتصلت عليها هاتفيًا.. وقد أثار حفيظتها وخوفها أنها كانت تسمع صوت الهاتف يرن داخل المنزل دون أن تجيب عليه جمانة.

فقدت أعصابها من شدة الخوف من أن يكون طارئًا سيئًا قد حدث، فأخرجت مفتاح باب بيت جمانة من حقيبتها، وقد سبق لجمانة أن أعطته إياها لتعتني بالنباتات داخل المنزل أثناء وجود جمانة في المستشفى لعدة أيام وأيضًا كي تدخل وتخرج متى أحبت أن تأتي كونها أقرب صديقاتها.

فتحت مها الباب الخشبي الداخلي بالمفتاح ودخلت..

- جمانة... جوجو... جمانة أين أنتِ... قد تأخرنا.

لا.. أحد يجيب... صمت تام..
فتحت باب غرفة نوم جمانة بخوف شديد.. فرأتها ممددة على الأرض فاقدة للوعي ووجهها كأنه قشر ليمونة من شدة الشحوب.
صرخت مها وجلست تهز جمانة من كتفيها لتوقظها فقد ظنت أنها ابتلعت شيئًا من الحبوب المنومة لتنتحر، وبيدٍ مرتعشة طلبت رقم سيارة إسعاف لتحضر بأقصى سرعة ممكنة.
دخلت جمانة قسم العناية الفائقة للقلب بسبب أزمة قلبية حادة بعد بكائها وانهيارها.
كانت مها تجلس إلى جانب سرير جمانة وبعينين دامعتين ترقب جهاز تخطيط القلب الذي يرسم النبضات وتحكم وضع قناع الأوكسجين على وجه جمانة الشاحب.
لم تكن تعلم مها ما الذي أوصل جمانة إلى هذا الوضع المخيف.. فهي تعلم أنَّ جمانة تتمتع بصحة جيدة ولا تشتكي من أي مرض مزمن.. لكن أزمة قلبية مفاجئة تلك هي

الكارثة.. لماذا حصلت لها.. ما الخبر الذي سمعته فقضى عليها هكذا؟

جميع زملائها في المستشفى كانوا في حالة ذهول من خبر رقود جمانة في قسم إنعاش القلب.. فلطالما كانت تجري كالغزال في أيام عملها، طرحوا على مها هذا السؤال عدة مرات.

- أنتِ أقرب صديقاتها.. هل تعلمين ما هو الضغط النفسي أو الجسدي الذي تعرضت له هذه الأيام فسبب لها أزمة قلبية حادة؟
- أبدًا... عندما وصلت لبيتها وجدتها مرمية على الأرض ولا تستطيع أن تتفوه بكلمة ليتني كنت أعلم ما جرى.

خمسة أيام وجمانة في قسم العناية الفائقة.. يتم حقنها بالمسكنات وأدوية مانعة للتخثر لتمنع تخثر الدم الذي قد يؤدي إلى تجلط الشرايين وانسدادها، تفتح عينيها كل مرة لترى جهاز مراقبة نبض القلب يسجل نبضات قلبها المتعب وأنبوب المصل مربوط في يدها وبين حين وآخر تسمع طنين الآلات أو جهاز مراقبة النبض لمرضى آخرين في نفس الغرفة يعلن عن توقف قلب أحدهم فتتسارع الخطا نحوه في

محاولـة لإنقـاذه بجهـاز الصـدمات الكهربائيـة للقلـب، كـان الموت قريبًا من جمانة وقد يزورها في أي لحظة ولـم تكن خائفة منه أو منزعجة إذا ما زارها فهي لم تعد تشعر بأي رغبة للاستمرار في لعبة الحياة المرهقة تلك.

استقرت حالتها أخيرًا بعد عشرة أيام وخرجت ترافقها مها إلى المنزل.

كل شخص يعرف جمانة داخل وخارج عملها كان يتصل ليطمئن عليها إلا شخص واحد.. إلا أقرب الناس.. إلا من كان زوجًا وحبيبًا ووطنًا.

الـم يقولـوا أنَّ المجـرم القاتـل لا يفتـأ يـدور حـول مكـان جريمته... لكـن مـا بـال هـذا الـذي ذبـح قلبًـا أحبـه لا يشـعر بفضول القاتل.

وكأنه قلب صفحة من كتاب ممل ولا يريد أن يعود للنظر إليها مرة أخرى.

أو ربما كان جبانًا إلى درجة الاختباء بعد أن ارتكب عمله القبيح ذاك، فاختبأ كطفل خائف من نتيجة أفعاله.

فبكـل الأحـوال لـم يكـن رجـلًا يحمـل معنـى كلمـة رجـل.. فالرجـل لـيس ذكـرًا فحسـب، الرجولـة هـي موقـف وعقـل ومسـؤولية وقـرارات إن اتخـذناها لا بُـدَّ أن نقـف لنتحمـل

نتائجها دون أن نهرب أو نتخاذل، فالحياة هي أكبر ساحة للمعركة وفيها يظهر الرجال على حقيقتهم.
لا فجيعة أكبر من أن يخذلك أقرب إنسان على قلبك، ولا ألم أكبر من أن تكتشف أنكَ كنتَ تسلية له ليس إلا.
قد كنت رغبة جامحة لدى أحدهم وبعد أن اكتفى منك رماك كعقب سيجار يدوسها بقدميه.
أو أنك يجب أن تعتاد على تقبل قبح وجوه أناس قضيت معهم أسعد لحظات حياتك.
يقال إنَّ الموت هو طريقة واحدة من الطرق الكثيرة لفقدان حياتك...
كم كان صادقًا نزار قباني حين كتب تلك الكلمات عن المستبدة.

الويل لي.. يا مستبدة
الويل لي كم بت مخدوعًا على تلك المخدة
الويل لي من فجر يوم ليتني ما عشت بعده.

لكن هنا كان المستبد والظالم هو رجل فنان عازف حساس.. يعشق الفن والموسيقى لكنه يملك قلبًا أشد قسوة من الحجر الصوان.

لكن ألم يجرب هو نفسه عذاب الغدر والخيانة الذي عاشه بسبب حبيبته اللعوب التي كان مغرمًا بها أيام الجامعة.
هل يمكن أن تصبح الضحية جلادًا في يوم من الأيام؟ فتقسو على غيرها وتصيبه بنفس الخنجر الذي أصابها.
لا بُـدَّ أنَّ هـؤلاء الأشـخاص الـذين يجرحـون غيـرهم إنمـا يجرحـون أنفسـهم أولاً... لأنهـم لا يمتلكـون حبًـا لأنفسـهم ليعطوه لغيرهم.
فمن يقلل من احترامك هو بالأساس لا يمتلك هو احترامًا لنفسه كي يمنحه للآخرين.
إنهم يتألمون؛ لذلك هم يلجأون لإيلام الآخرين.
يبدو أننا نُخطئ عندما ندخل قلبًا فيه عطر من بقايا غيرنا... لأننا لن نكون أكثر من حبة (بندول) يستعملونها لتسكين آلام حب مضى.
خرجت جمانة من المستشفى نحيلة شاحبة.. لم تكن تستطيع أن تضع لقمة واحدة في فمها.. فقدت كل رغبة في الحياة.
قصّتْ على صديقتها مها ما حدث، كانت تخرج الكلمات من بين شفتيها كأنها أشواك حادة تجرح لسانها.. ترافقها دموع حارقة تسيل دون توقف.
نصحتها مها بالنسيان.. النسيان.. لكن ماذا ننسى؟

كيف ننسى وكل ما حولنا ينادي باسمهم... عطرهم في كل مكان.. صوت الضحكات والهمسات.

كيف نشفى من إدماننا عليهم.. فكل رنة من الهاتف يُخيّل لنا أنهم من يتصل..

شوارع المدينة.. المقاهي التي ارتدناها معًا... نسيم الربيع.. الأكلات التي تذوقناها معًا.

ماذا نقول لكل ذلك.. للأغنيات التي أهديناها لهم والتي أهدوها إلينا..

ماذا نقول للصباحات التي تبدأ برسالة منهم...

كيف ننسى... كيف ننسى من يتدفقون في مجرى دمنا... من اتخذناهم وطنًا.. وقاموا بنفينا بعيدًا في جزر الوحدة والألم.

ماذا تفعل بلون شعرها الذي يحبه؟ بقميص النوم الذي كان يعشقه؟

كانت الليالي والأيام تتعاقب على جمانة كلها بلونٍ واحد.. الأسود..

وكأن الشمس قد غيرت عادتها ولم تعد تشرق كل صباح وتتسلل خيوطها عبر النافذة، أو قد تكون الأرض قد أبطأت من دورانها فصارت الساعات أطول وأثقل، كانت كمن غرق بالرمال المتحركة حتى أبطيه... تشعر أنَّ لا سبيل لها

للنجاة... تلعق جراحها وحيدة كل يوم من الصباح حتى المساء.
لا زال رقم نبراس على هاتفها، تنظر إليه والدموع تفيض من عينيها.
ما أصعب أن يكون لديك رقم على هاتفك لا تجرؤ على الاتصال به.. ولا يسمح لك قلبك بحذفه.
فبعض الجراحات تظل وفية لنا لا تفارقنا... فلا هي تشفى... ولا تندمل، حتى لو أخذنا كل الحقن المضادة للتلوث.. حتى لو لفحها الهواء وعقمتها شمس الألم... لا... لن تشفى.
إنها تتسع... تتورم... تتقيح كل يوم... تزداد اتساعًا.
لن تشفى... وإن شفيت ستترك ندبة كبيرة تشوه الجسد الذي يحملها.
لن يفيدنا إصرارنا على التخلص منها... إنها تلتصق بنا بقوة.
ولسوء الحظ تلتصق تلك الجراح في مكان يصعب بتره والخلاص منه... إنها في الروح... فكيف لنا أن نبتر الروح للتخلص من جرح يأسنا من شفائه.
لكن لماذا تلك الجراح وفية إلى هذا الحد؟
فلا تكاد تتركنا للحظة واحدة... ولماذا من كان السبب بخط تلك الجراحات فينا خائنون بتفوق؟
وكما يكافئ المتفوق من ذويه... تكافئ الدنيا هؤلاء الخائنين

فتهطل عليهم غيمات النسيان... وتزهر حدائقهم حرابًا حادة وكأنهم في محمية كبيرة... لا دنيا تجرؤ على خدشهم... ولا ألم يسمح لنفسه بأن يزور ضمائرهم الميتة.

لا بُدَّ أنَّ بعض منا يوجد في جيناته شيء يجتذب الجراح... لأنها تختارنا بفطنة كبيرة.

قد نكون نحن أصدقاء الجراح التي لا تندمل.

كانت جمانة تتعافى ببطء.. لكنها تتعافى... فليس مثلها من يسقط، إنها جبل من الصبر.

وخطوة إلى الأمام كل يوم... تعني أننا على الطريق الصحيح.

قد يعود الفضل أحيانًا لكل ما عانيناه من صعوبات في حياتنا.. لكل تلك الآلام التي كسرتنا في صغرنا يومًا.. فأصبحنا نحترف النهوض بعد كل سقوط.

نهضت جمانة.. بعد أن حفرت لخيبتها قبرًا ودفنتها فيه.

ما كانت تشعر به هو الخذلان فقط.. الخذلان.

أن يخذلك أحبُّ الناس إلى قلبك.. أن يخذلك من أقسمَ لكَ مرارًا أنه لن يسمح للدموع أن تسقط من عينيك... أن يخذلكَ من حملته في قلبكَ وروحكَ عمرًا بأكمله

من تخيلته هو الفرحة التي عوضتك عن كل حرمانكَ وحزنكَ... من كان اليد التي تمسح دموعكَ... فصار هو الخنجر المغروس في خاصرتكَ.

ذلك هو عينه ما يسمى بالموت وأنت حي ترزق.
كل ما كانت تستغرب له جمانة هو لماذا لم تكرهه؟
أليس من المنطقي أن نكره الحبيب الخائن؟
لماذا يكسر الحب كل القوانين والفرضيات؟
لماذا لا يعترف بالعقل والمنطق؟
لماذا يتصرف الحب مثل ابن عاق لنا؟
إنه يخالف كل قوانين الكون... ينافي العقل.. لا يمكن أن نضع خارطة لتدلنا أي طريق نسلك في الحب.
إنه شعور متمرد.. يفضي بنا إلى حيث يريد.. لا إلى حيث نأخذه نحن.
انهمكت جمانة في عملها وحياتها اليومية.. تحاول ترميم جرحًا ينزف بين ساعة وأخرى، وليس غريبًا عليها ترميم الجراح... لطالما عاشت ترمم جراحها بنفسها. لكن قوة داخلية في الاستمرار وعناية الله ساعدتها على أن تُكمل طريقها دون أن تسقط كما سقط الكثيرون بعد الخيبة والخذلان.
وأهمُ من ينصحك بالنسيان.. فليس للنسيان من وجود.
إننا فقط نخبئ الراحلين عنا في مكان بعيد في الذاكرة.. لا تصل إليه أيدينا.. نخبئهم هناك ليرقدوا بسلام في جذور ذاكرتنا.

(28)

(ساحة عدن)

كل ما نفعله في الحياة سترده إلينا يومًا.. خيرًا أم شرًا.. أليست الأرض كروية؟ ألا زالت تدور؟

إنَّ أفعالنا في هذه الدنيا تشبه الصراخ في الوادي.. فكما يرتد إليكَ صدى صوتكَ مضاعفًا عند صراخكَ في وادٍ فارغ.. سيرتدّ إليكَ عملكَ وفعلكَ.. خيرًا كان أم شرًا.. إنه قانون الحياة.

إنَّ ما يزيد في ألمنا أننا نركز كل أفكارنا على أنفسنا نحن، وما حدث لنا... لكن لو فكرنا قليلًا بالآخر.. بهؤلاء الذين خانونا.. وهجرونا... الذين داسوا على قلوبهم من أجل عائلاتهم.. هل يتألمون كما نتألم؟ هل يشعرون بفداحة أن تخسر حبًا وهبته لكَ الحياة كي لا تجرح أحساس عائلتكَ وأطفالكَ... ربما يجلسون كل ليلة يفكرون بقرارهم ذاك وهل كان خطأ ما فعلوه أم صوابًا... ربما تكون آلامهم بنفس شدة ألامنا أو أكثر.

لكن هذا يحدث إن كانوا صادقين فقط.. أما إن كانوا ممن تدفعهم النزوات المؤقتة للكذب وإفساد حياة الآخرين، فهؤلاء لن يشعروا بوخز الضمير، وسنبقى نشقى بحبهم على الرغم من رفضنا الروحي لهم لبشاعة قلوبهم، لكن هل يتحول المحبوب والمعشوق يومًا إلى شيء في زوايا الذاكرة المهملة بعد خيانته وهجره؟

هل نمر على آثاره التي تركها في حياتنا دون أن نكترث أو تعاود قلوبنا النبض كلما شدنا الشوق إليه؟

هل يمكن أن يفكر أحدنا بالانتقام من حبيب غادر؟ هل يشمت به أو يفرح عندما يسمع أنَّ مكروهًا أصابه؟

ما هو الجواب يا ترى...؟

في صباح يوم الأحد وبعد خمسة أشهر من عودة جمانة إلى محل عملها عقب تعافيها من أزمتها القلبية والمأساة التي حلت بها وبحياتها، حدثت هزة كبيرة وسمع صوت دوي مرعب أدى إلى تهشم زجاج النوافذ في أروقة المستشفى التي تعمل فيها، فعلم الجميع أنَّ انفجارًا قريبًا جدًا قد حدث للتو.. وبدا كل العاملين يتأهبون لاستقبال الجرحى والمصابين الذين سينقلون بعد عدة دقائق.

وبالفعل كان الانفجار في ساحة عدن في بغداد وهو مكان مزدحم جدًا خاصة صباحًا، وخلال نصف ساعة غرقت

المستشفيات بالجرحى وازدحمت غرف العمليات، كان الجميع يجري لإسعاف للأسعاف المصابين فقد كان بينهم عدد كبير من الأطفال الذين أصيبوا بجروح عميقة، وامتلأت ثلاجات الموتى بالجثث التي فارقت الحياة لحظة الانفجار.

في أحد الأسرّة كان الجريح الراقد قد قطعت ساقه اليمنى في ذلك الانفجار الذي أحدثته سيارة ملغمة لم تكتشفها أجهزة الشرطة؛ لأنها لم تكن أجهزة حقيقية للكشف عن السيارات الملغمة أو الأسلحة، فهي أجهزة متخلفة لا تصلح لشيء إلا لتفاقم الازدحام وإعاقة حركة المرور لغرض التفتيش الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

كان ذلك الرجل قد راودته نوبة ضيق في التنفس كإحدى نوبات الربو القصبي الحاد، فتمَّ وضع الإسعافات الأولية له وإعداده للدخول إلى غرفة العمليات على وجه السرعة لإيقاف نزف شرايين ساقه المقطوعة.

طلب أحد الزملاء من جمانة أن تتولى هي حالة ذلك الرجل ذي الساق المبتورة بينما يقوم هو بإسعاف طفل احترق وجهه وصدره بلهب الانفجار.

اقتربت جمانة بسرعة كبيرة من الرجل الراقد في السرير لتضع له قناع الأوكسجين وتتأكد من نبضه، فما كان منها بعد أول

نظرة إلى وجهه إلا أن صرخت صرخة عالية ووقعت متهالكة بجانب السرير.

أتى زميل جمانة مسرعًا بعد أن أحسَّ أنَّ المصاب هذا قد يكون أحد أقارب جمانة مما أدى إلى انهيارها هكذا، وأوصاها بأن ترتاح قليلًا وسيأخذ هو الرجل الجريح إلى غرفة العمليات حالًا.

نظرت جمانة إلى زميلها بعينين حائرتين تملؤهما الدموع وهي ما زالت في حالة من الصدمة واضعة يديها على فمها لتكتم الصرخات التي خرجت منها رغمًا عنها. ظلت جامدة هكذا في مكانها ولم تتفوه بكلمة واحدة وهي تشاهد المسعفين يسحبون سريرًا متحركًا ليضعوا فيه الرجل المصاب ويحملوه إلى صالة العمليات الحرجة.

تم نقل المصاب الغائب عن الوعي إلى صالة العمليات الكبرى لإيقاف نزف شريانه وإنقاذ روحه التي شارفت على الموت.

بعد أن تم خلع ملابس المصاب وإعداده للعملية.. طلب الطبيب من الممرضة أن تجد هوية أو أي شيء يشير إلى اسم المصاب ليدونه في الملف الطبي، وأن يسجل اسمه في سجلات المصابين حتى يتم الإبلاغ عنه عند حضور أحد من أهله أو عائلته للسؤال عليه.

صاحت الممرضة بعد أن وجدت في جيب الرجل هوية تثبت شخصيته وبالكاد استطاعت أن تقرأ الاسم بعد أن مسحت الدماء التي غرقت بها ملابس الرجل ومحفظة جيبه وهويته الشخصية.

دكتور إنَّ اسمه.. نبراس محمد أمين.

(29)

(معزوفة الموت)

كانت السيارة (البي أم) الحديثة ذات المقاعد الجلدية السوداء متجهة إلى ساحة عدن وسط اختناق مروري كبير في أول ساعات الصباح، تحمل في الصندوق آلاتٍ موسيقية وفي المقعد الخلفي جلس ولاء وسرمد وهما عازفان في المجموعة الموسيقية التي يشرف على قيادتها نبراس، وقد ازدحم المقعد الخلفي بباقات من الأزهار بألوان ربيعية رائعة حزمت ليتم وضعها في قاعة المدرسة التي سيقام فيها الحفل الموسيقي، فقد اتفق نبراس مع مدير المدرسة الذي قرر أن يُضفي جوًا من البهجة لطلابه ويحتفل بتخرجهم من الصف الثالث المتوسط في مدرسة البنين الواقعة بالقرب من ساحة عدن.

جلس نبراس في المقعد الأمامي قرب السائق الذي أزعجه الزحام الشديد ووقوف طابور طويل من السيارات أمامه منتظرين السماح لهم بالدخول من نقطة السيطرة التي تم نصبها هناك والتي تسمح بمرور سيارة واحدة في الطريق

الذي تم تضييقه عمدًا كي تتم السيطرة على السيارات المارّة والكشف عنها بجهاز الكشف الفاشل والذي لا يلتقط سوى روائح العطور والمعقمات.

في أجزاء من الثانية وبلمح البصر اهتزت الأرض تحتهم وشبت النار في نقطة السيطرة المرورية وامتلأت السماء بدخان أسود خانق بعد أن سُمع صوت مدوٍ مرعب لانفجار سيارة ملغمة في مدخل السيطرة المرورية.

أكلت النار المركبات التي وقفت خلف تلك السيارة بعد انفجارها وتناثرت أجساد الرجال المسؤولين عن التفتيش في الدخان الكثيف، كانت السيارة التي يجلس فيها نبراس مع العازفين تبعد عدة أمتار عن السيارة الملغمة، وقبل أن تنفجر المركبة بلحظات كان نبراس قد فتح باب السيارة الواقفة في الزحام ليخرج منها ويقف ليريح ساقيه قليلًا من الجلوس الطويل فلم يشعر إلا وقوة هائلة قذفت به بعيدًا على الرصيف المقابل وصوت صراخ يتعالى هنا وهناك وألسنة نار مستعرة بدخان أسود حُول النهار إلى ليل قاتم، كانت تلك آخر الصور التي علقت في ذاكرته قبل أن يفقد الوعي تمامًا.

امتلأ المكان برجال الشرطة والإسعاف في الحال.

في تلك اللحظات فتح ولاء عينيه وهو أحد العازفين والذي كان يجلس في المقعد الخلفي لسيارة (البي أم) بعد أن فقد وعيه لمدة دقائق بعد حدوث الانفجار المرعب.

كان قميصه ملطخًا بدماءٍ حارة وقد شعر بألمٍ ثاقب يمزّق ذراعه اليسرى، التفت لصديقه الذي كان جالسًا بجانبه والذي كان الدم يسيل من عنقه المذبوحة بقطعة حادة من شظايا الانفجار التي تطايرت هنا وهناك.

كان السائق وهذا العازف قد فارقا الحياة خلال لحظات قليلة.

وتلونت الأزهار المكدسة في المقعد الخلفي بجانب العازفين بالدخان الأسود والدم الذي تدفق بحرارة من جسديهما.

كان آخر مشهد علق في ذاكرة ولاء قبل أن يفقد وعيه هو الآخر وجه طفل بعمر أربع سنوات يجري وسط الشارع والنار تلتهم ثيابه وهو يصرخ.. ماما.. ماما.

بسبب مجرم متطرف تحولت موسيقى الفرح إلى معزوفة للموت.

معزوفة تسمع كل يوم عدة مرات في شوارع بغداد المقطعة الأوصال.. وجوه تحترق وأرجل وأيدي تقطع وأزهار تمزق.

نقلت سيارة الإسعاف المصابين إلى اقرب مستشفى، وكان ولاء ونبراس من بين هؤلاء الجرحى، كانا فاقدي الوعي ولا يعلمان ما قد أصاب جسديهما من أضرار، لم يعيا أنهما سيخرجان من ذلك الانفجار أحياء، قد غادر جزءًا من جسديهما إلى غير رجعة، فولاء قد فقد ذراعه الأيسر ونبراس الآن بساق واحدة.

(30)

(زهرة التوليب)

خرج نبراس بعد ساعتين من صالة العمليات وتم نقله إلى غرفة العناية الفائقة كونه ما يزال يشكو من ضيق في التنفس، كان أهله وزوجته جميعًا ينتظرون خارج باب غرفته وهم يذرفون الدموع وقلوبهم تكاد تتوقف من شدة قلقهم عليه.

بعد أن أفاق من التخدير كان الألم يكاد يمزق جسده وروحه، نظر إلى ساقه التي تبقى جزء منها بعد أن قُطعت من فوق الركبة بشظية كبيرة من شظايا الانفجار.

شاهد قالبًا مزودًا بأنبوب صغير يخرج منه قد وضع على الجزء المتبقي من الساق قد تم إدخال هذا الأنبوب في الجرح أثناء العملية كي يتم تصريف الدم والسوائل التي تتجمع فيه.

بعد ثلاثة أيام تحسنت حالته قليلًا وقرر طبيبه أن ينقله إلى الردهة الرجالية في قسم الكسور؛ ليبقى هناك ويتم تنظيف جرح ساقه المبتورة كي يبقيها بعيدة عن التلوث،

فلابد له أن يبقى لثلاثة أسابيع داخل المستشفى كي يتم التئام جرحه جيدًا.

بعد يوم واحد حدث انفجار آخر مشابه لما حدث في ساحة عدن لكنه هذه المرة وسط ساحة للبيع المباشر للسيارات في منطقة البياع في بغداد، هذه الساحة مزدحمة جدًا حيث يأتي إليها الناس من جميع محافظات العراق ليعرضوا سياراتهم الخاصة ويقوموا بالتفاوض على بيعها أو مبادلتها بسيارة أخرى، وأغلب تلك المركبات هي من سيارات السيارة الأجرة يعتاش أصحابها على عملهم هذا كسائقي سيارات أجرة وأيضًا أغلبهم من العائلات الفقيرة.

دخلت سيارة ملغمة بين السيارات وضعها سائقها الملعون وتركها هناك لتنفجر بين حشد كبير من المساكين الذين جاءوا بحثًا عن رزقهم، وخلال لحظات عمت ألسنة اللهب المكان وتناثرت الأشلاء يمينًا وشمالًا بين دخان أسود كثيف، فهرع أهل الأحياء المجاورة وكل من في الشارع لإنقاذ الجرحى فكانوا يحملون الجريح من هؤلاء الجرحى فتتساقط يد منه أو قدم من شدة تقطيع جسده، فغرقت المستشفى بالمصابين الذين لم تكد تخلو منهم بعد، أما من كان قريبًا من السيارة الملغمة وهو العم أبو محمد بائع (اللبلبي) والذي كان يتواجد كل يوم هناك في تلك الساحة

ويرحب بالجميع بابتسامة محببة وأحيانًا يقدم (اللبلبي) للزوار مجانًا فقد اختفت جثته تمامًا ولم يجد أحد منه لا قدم ولا حتى أصبع، فقد تناثر جسده الطيب قطعًا قطعًا فلم يعد بالإمكان أن يستدل عليه أحد لذا حفروا له قبرًا ووضعوا عليه اسمه ليكون قبرًا رمزيًا ترفرف عليه روحه الطيبة المظلومة.

قرر الطبيب المسؤول عن علاج نبراس إن ينقلوه أهله إلى البيت فلم يعد هناك مكان يتسع في المستشفى والسرير الذي يشغله هنالك من يحتاجه أكثر منه الآن.

وابلغهم بضرورة تعقيم جراحه كي لا تتلوث ولولا وضع المستشفى المزدحم لما أخرجه الآن .

قبل أن يتم توقيع أوراق الخروج لنبراس أتى أحد الأطباء المتخرجين حديثا والذي كان تحت التدريب في المستشفى واخبر نبراس وأهله أن احد الأطباء قد تبرع بنقل المرضى المحتاجين لإكمال علاجهم إلى مستشفى خاص قريب من هذا المستشفى وإن عدد المرضى أربعة ونبراس من بينهم، وسأله عن موافقته أو رفضه لهذا العرض من قبل الطبيب.

اختلفت العائلة في النقاش بالقبول أو الرفض ثم قطع جدالهم نبراس بصوت متعب لا يكاد يسمع:

- إني موافق على عرض الطبيب هذا، وأريد الانتقال إلى المستشفى ذاك، أرجوك أيها الطبيب أسرع في إجراءات نقلي.

تم إدخال المرضى الأربعة إلى ذلك المستشفى الخاص وكان نبراس هو الرجل الوحيد بينهم لأن الثلاثة البقية كانوا أطفالًا لأحد العائلات الفقيرة المعدمة، حيث كانوا يتنقلون بين إشارات المرور قبل حدوث ذلك الانفجار المروع ليقوموا بمسح زجاج السيارات مقابل بعض الأوراق النقدية القليلة، وهذا المشهد الذي يقطع القلب لأطفال تركوا المدرسة وانتشروا في الشوارع للعمل أصبح من المشاهد الطبيعية التي نراها بكثرة أينما تجولنا في شوارع العاصمة بغداد بعد أن فاضت باليتامى والمشردين الذين قُتل ذووهم بمسلسل الرعب وانفجار السيارات الملغمة كل يوم.

كان نبراس يُنقل كل يومين إلى غرفة العمليات في المستشفى الخاص الذي دخل فيه ليتم تبديل ضمادات جرحه وتنظيفه، وبسبب شدة الألم الذي يتعرض له؛ كان يُزرق بمخدر قبل أن تبدأ عملية فتح الضمادة وتنظيف الجرح، وعند الانتهاء كان يجد نفسه مجددًا في غرفته داخل المستشفى، لذا لم يلتقِ أبدًا بهذا الطبيب الشجاع الكريم الذي أدخلهُ والأطفال

الثلاثة للعلاج على حسابه الخاص وأشرفَ على علاجه بنفسه.

أخبرهُ الطبيب الخافر في المستشفى أنَّ جراحه ستلتئم بمرور أربعة أسابيع، ولن يبقى إلا ندبة للطرف المبتور، وقد كانوا يضعون له رباطات ضاغطة لمنع التورم في الطرف المتبقي لساقه المبتورة مع تنظيف يومي لتلك الندبة ومسح الكريمات عليها؛ لتبقى مرنة وناعمة كي تتم تهيئتها لتركيب الطرف الصناعي لاحقًا.

كان يسأل عن اسم الطبيب المشرف على علاجه فلا يجيبه أحد.. كل ما كان يحصل عليه من إجابة هو أنه أحد أطباء المستشفى الحكومي المجاور.

في أحد الليالي كان ممسكًا بهاتفه يتابع المواقع والأخبار على صفحات الفيس بوك ليحاول أن ينسى ألم ساقه والكارثة التي حلت به بعد أن أصبح بساق واحدة، حيث كانت الأفكار السوداء تعصف في رأسه وكثير من التساؤلات التي كانت تأرق مضجعه.. كيف سأعود للعمل؟ كيف سأتابع حياتي؟ قد أصبحت معاقًا الآن؟.

وليس هناك أكثر ألمًا من أن يصبح عازفًا للكيتار معاقًا غير قادرًا على الوقوف وحمل كيتاره مبتهجًا في الحفلات أو أن يكون مشرفًا على الحفلات الموسيقية، فيتنقل هنا وهناك بين

العازفين بحماس وسرعة كبيرة لم يعد الآن يمتلكها، فهو بالتأكيد سوف يخرج جالسًا على كرسي مدولب.
وهو في زخم تلك الأفكار وردت رسالة ألكترونية على هاتفه.. يبدو أنها من امرأة كانت تضع اسمًا مستعارًا (زهرة التوليب) مع صورة لزهرة التوليب باللون الزهري.
بدأت بمحادثته برسائل ألكترونية.. أهملها في بداية الأمر، ثم بعد ليلتين بدا يجيب عليها برسائل متبادلة.. فقد كان ليل المستشفى الطويل يشعره بالوحدة والاكتئاب فانجر إلى تلك المحادثات مع تلك المرأة المجهولة لينشغل قليلاً ويمضي الوقت الثقيل في المستشفى.

- ماذا تحب؟
- أحبُّ السفر والترحال كثيرًا.. أتمنى لو أجوب كل الدنيا.
- هل سافرت سابقًا؟
- نعم كثيرًا.. وعزفتُ في كثيرٍ من الحفلات في الشام والكويت واسطنبول. كان يقضي الليالي يحادث زهرة التوليب.. تلك الفتاة أو المرأة المجهولة، إلى أن يغلبه النعاس فلا يشعر بمرور الوقت.

- أي الألوان تُحبين يا زهرة التوليب... ولماذا تضعين صورة أزهار التوليب بالذات؟
- أنا أعشق كل تدرجات اللون الزهري، والتوليب من الأزهار غريبة الشكل والمتفردة... تشعرك بتميزها عن باقي الورود.
- من الواضح أنكِ فتاة حالمة وتافهة.. لم تجربي الألم والمعاناة.. لم تعرفي ما معنى أن تفقدي حبيبًا.. أو أن تفقدي عضوًا من جسدكِ أيتها الطفلة المأخوذة بالتميّز.
- سأتحمل أسلوبك الجاف وإهاناتك.. لأن ما يدفعني لمحادثتك هو الفضول، أريد أن أعرف كيف يعيش العازفون والفنانون حياتهم.. هل يعشقون؟ وكيف يكون عشقهم، هل هو نار تَشب في القلب ولا تنطفئ؟ هل وقعت في الحب يومًا؟
- بالتأكيد.
- من؟ هل هي زوجتك؟
- أحبُّ زوجتي قطعًا.. لأنها زوجتي.. لكنها لم تكن حبي الأبدي.
- إذن، أخبرني عن حبك الأبدي.

- وما دخلكِ أنتِ بقلبي يا زهرة التوليب.. لستِ سوى متطفلة.. كيف تجرئين أن تسأليني عن حبيبتي؟.
- إنه حديث عام ما الذي يزعجك فيه، لا أعرفك ولا تعرفني.. إننا نتجاذب الحديث لنقتل الوقت لا غير.
- وهل عرفتِ الحب أنتِ يومًا؟
- نعم أحببت... لكنه كان غادرًا خائنًا.
- هل شعرتِ بحرارة أنفاس حبيبكِ وأنتِ قريبة منه؟ هل ذُقتِ حرارة شفتيه؟ أنتِ لا تعرفين شيئًا عن الحب أيتها الطفلة البليدة.
- سليط اللسان أنتَ، ومتكبر. أخبرني أيها المتكبر عن حبيبتكَ قليلاً.. صِف لي شكلها؟.
- إنها جميلة.. لحظة واحدة.. إنني أحتفظ بصورة لها في هاتفي.. دعيني أتأملها وأخبركِ عنها. عيناها واسعتان.. شعرها الأسود يصل إلى أسفل عنقها.. طويلة ممتلئة الجسم
- هل هي أجمل أم زوجتك؟
- الحب ليس له علاقة بجمال الشكل، فالروح والقلب هما من يعشقان.. وليس العين أيتها الطفلة الجاهلة بأمور الحب.
- متعجرف. أخبرني.. ما اللون المفضل لحبيبتك؟

- إنها تعشق الأحمر.. ففي كل صورها هنا التي أحتفظ بها على هاتفي كانت تحمل حقيبة حمراء وتضع زهرة حمراء في شعرها.
- منذ متى لم ترها؟
- منذ أن افترقنا.. تزوجت بعد أن أجبرها والدها على الزواج.. عشت بعدها ألم فراقها الذي لا يضاهيه سوى ألم ساقي المقطوعة، لكني سمعت قبل سنة أخبارها بعد أن التقيتُ بأحد الأصدقاء القدامى لي ولها في الجامعة التي كنا فيها معًا، الآن هي أم لثلاثة أولاد، ابنتها الكبرى في الثامنة عشر من عمرها.
- إذن خانتك وتزوجت من غيرك.. وما تزال تحتفظ بصورة لها على هاتفك؟.
- أيتها الفضولية المتطفلة.. لا تتكلمي بسوءٍ عنها، وإلا سوف أهمل جميع رسائلكِ ولن أجيب بعد الآن على أحاديثك التافهة.. حتى لو اضطررت أن أتحمل ليل المستشفى الطويل ساهرًا أنظر في السقف حتى الصباح.. هل فهمتي؟
- على مهلك.. اهدأ.. اهدأ أيها العزيز.. حسنًا ما اسم حبيبتكَ؟

- أيتها الفضولية.. وما دخلكِ أنت؟ آه.. إنها من أجمل الأسماء.. نقشتُ اسمها بداخل روحي منذ زمن بعيد.. افترقنا.. لكنها.. لا تعلم أنني... و إلى هذا اليوم ما زلت اعشقها.

(31)

(رسالة صباحية)

حضر الطبيب الشاب الذي كان يعمل في ذلك المستشفى الخاص إلى غرفة نبراس صباحًا وأخبره بأنَّ حالته الصحية أصبحت جيدة جدًا، ويستطيع الخروج اليوم والذهاب إلى البيت.

كانت الزوجة والعائلة في غرفة نبراس وقد أحضروا معهم كرسيًا مدولبًا ليجلس عليه ويمارس حياته خارج المستشفى بعد أن أخبره المشرف على التأهيل والعلاج الطبيعي بأن يتشجع، وأن لا يفقد الأمل بالسير على قدميه من جديد ما دام هناك اختراع اسمه الأطراف الصناعية التي طالما استعملها الكثيرون وعاودوا نشاطهم وعملهم بشكل رائع كما لو أنها أطرافهم الحقيقية.

وقّع الطبيب أوراق الخروج للمصابين الأربعة.. نبراس والأطفال الثلاثة..

طلب نبراس من الطبيب أن يرى طبيبه الذي كان يعالجه وينظف جرحه في غرفة العمليات ليشكره على كل ما فعله

معه، اعتذر الطبيب الشاب من نبراس وأخبره بأنَّ الطبيب قد سافر في عمل صباح اليوم ولن يستطيع أن يراه.

- آسف جدًا أستاذ نبراس.. الطبيب المسؤول عن حالتك أنت والأطفال المصابين قد سافر في رحلة عمل صباحًا.
- لكني لم أره.. ولا أعرف حتى اسمه، يجب أن أشكره على كل ما فعل. أرجوك أخبرني إذن عن اسمه الكامل كي أبحث عنه وأشكره حال عودته من السفر.
- اعذرني أستاذ نبراس.. فقد أوصاني بعدم البوح باسمه لأحد.. فهو يقول إنَّ ما فعله معكم هو واجب إنساني ولا يريد شكرًا عليه.

وأنتَ في صدمة الألم قد لا تشعر بفداحة ما فقدته، لكن بعد أن تجلس وحيدًا لتتأمل ما حصل، سوف تبدأ هنا رحلة المتاهة الحقيقية؛ لأنك لابد أن تصنع من نفسك شخصًا آخر يتناسب مع حالك اليوم، أن تتعايش مع ما فقدت.. أن تتعود خروج وغياب الأشياء من حياتك بعد أن كانت جزء منك.. ولا فرق إن كانت تلك الأشياء حبيبًا أو ابنًا أو ذراعًا أو ساقًا فقدتها.

كانت الصباحات تمر ونبراس معزولًا عن العالم جالسًا على كرسيه المدولب يحاول تقبل شكله الجديد، أما ليله فقد كان طويلاً جدًا يحاول أن يختصره باستعمال الحبوب المنومة.

فحتى تلك الفتاة المتطفلة التي كانت تحادثه باسم زهرة التوليب فيفضفض لها عن ما يزعجه وقد يتعصب عليها أحيانًا وينعتها بالكلمات السيئة، قد انقطعت عن محادثته فجأة، بالتأكيد إنه مرتاح من إزعاجها الآن، لكنه بحاجةٍ إلى الثرثرة مع أحد من خلف ستار الأسماء المستعارة والتي تحيطنا بسرية مبهمة فيفضفض الجميع للجميع وهم مرتدين أقنعة وهمية.

فتح عينيه في الساعة العاشرة صباحًا بعد أن قضى ليلة طويلة يتصارع فيها مع إحباطه واكتئابه، تناول هاتفه وبعد أن وضع الرمز السري على الشاشة لفتحها وجد رسالة من شخص قد أرسلت في الساعة الرابعة فجرًا.

فتح الرسالة.. كانت طويلة ومن رقم ليس على قائمة هاتفه.

(رسالة)

صباح جميل أنثرُ فيه على مخدعكَ أزهارًا من التوليب.. لا تبتئس لما حل بكَ ولما فقدت.. فكل واحد على هذه الأرض قد ذاق طعم الفقد والألم.. ولا فرق أن فقد ساقًا.. أو فقد حبيبًا.. فكلاهما جزءًا منا.. كلاهما يصيبنا بنفس الألم والعذاب. لطالما أحببتكَ... وكنتُ سعيدة بهذا الحب.. لأنني كنتُ معتادة على عدم امتلاككَ.. لم يكن حتى في خيالي.. أن أحظى بحبكَ يومًا..

كنت قد وطّنتُ نفسي على حبِ رجل لا يشعر حتى بوجودي. فهذا أرحم ألف مرة من الخديعة.. أرحم من أن نسمي النزوة العابرة التافهة حبًا، وهذا ما فعلته أنتَ بالتحديد.. لم أكن أمثل عندكَ أكثر من رغبة مؤقتة.. لكني لم أستطع أن أتركَ تعاني الجراحات دون أن أكونَ معكَ وحولكَ.. خوفي عليكَ هو من جعلني أطلب من أحد الأطباء الزملاء في أن أحل محلهُ كي أشرف على علاجكَ بنفسي. كنتُ أصرُّ على أن يحقنوكَ بالمخدر قبل أن أدخل غرفة العمليات، وأباشر بتنظيف جرحكَ.. كي لا تراني.

أحسستُ بأنكَ محبطًا ومكتئبًا.. فكنتُ أرافقك طوال الليل برسائل ألكترونية أبعثها إليكَ متخفية بروح فتاة مرحة لتحادثكَ وتقضي الوقت معكَ كي لا تشعر بالحزن والملل.
لكنكَ لم تكن تعلم كم كان حديثكَ مؤلمًا.. وكم كنتُ أخنق الدموع كي أستمر بتمثيل دور زهرة التوليب، تلك الفتاة المتطفلة كما وصفتها.
لكن ما نفع الكذب؟ أجبني.
إذا كنتَ لم تُحبني يومًا.. لِمَ خدشتَ قدسية حُبي لكَ لتحقق رغبة عابرة بامتلاكي؟
إنَّ لوني المفضل هو الزهري... وليس الأحمر.
وشعري يصل إلى خصري.. وليس إلى أسفل عنقي.
كم تمنيتُ أن تصفني أنا... عندما سألتكَ زهرة التوليب عن حبيبتكَ.
لكنكَ كنتَ تتكلم عن امرأة أخرى.. كنتَ تصف خائنة لكَ بكل حبٍ وشوق.
لم تذكرني حتى.. وكأنني لم أمر بحياتك يومًا.
ما زلتَ بعد عقود من خيانتها وهجرها لكَ تصفها وتحتفظ بصورها على هاتفك.
ما زلت تقول... بأنكَ تعشقها.
لكن هل يمكن أن نحب الخائنين؟

هل الحب لعنة لا خلاص ولا فرار منها؟
يبدو أنه كذلك فعلاً.. الحب لعنة.. ولغز لم يجد أحد له حل بعد.
فنحن نعشق فحسب.. دون تفكير لِمَ نعشق..
لا يهمنا أجيد أم سيء من أحببنا.. كم من الخير فيه أم من الشر.
نعلم أنَّ هناك من هم أجمل منه.. وأفضل منه.. لكننا نعشقه هو..
وحتى لو أصبح خائنًا لنا... هناك شيء ما في داخلنا يرفض أن يكرهه.
تجرحنا أفعاله.. وتقتلنا خيانته.. لكننا لا نفكر بالانتقام أبدًا...
يبدو أنَّ حتى الخيانة بكل مرارتها.. لا تحملنا على كره من أحببنا.
فأنتَ... لا زلتَ تعشقها.
وأنا...لا زلتُ أعشقكَ.
وداعًا... أبديًا

(جمانة)

(32)

وضع هاتفه جانبًا ومدَّ يديه ليحرك كرسيه المدولب باتجاه الشرفة التي تطل من غرفة نومه، ظلَّ جالسًا هناك ينظر إلى قمم الأشجار وأسراب الطيور المحلقة في السماء، كان على غصن أحد الأشجار عش للحمام فيه ثلاثة أفراخ صغيرة قد فتحت فمها لأمها لتلتقط ما أحضرته لهم الأم من الديدان لتسد جوعهم بعد أن قضت النهار بأكمله وهي تبحث هنا وهناك عن تلك الوجبة لصغارها.

وعلى مسافة قريبة منها كان الذكر يحمل في فمه أعوادًا إضافية من الأغصان المتكسرة الصغيرة؛ ليرمم بها العش الذي أصبح ثقيلاً الآن بوجود الأفراخ الصغار وقد ينهار إذا لم يتم إصلاحه وتقويته.

وعلى شجرة التوت العالية كان هناك عصفوران ملاصقان لبعضهما، وصوت زقزقتهما يملأ الفناء فرحًا وبهجة، كانا بين حين وآخر يلمس أحدهما منقار رفيقه ويتحسسه، قد يكونا يتبادلان القبل، كأنهما حبيبين أو عاشقين أو قد يكون هذا هو موسم الحب لدى الطيور.. مَن يعلم!

كان نبراس يتأمل كل ذلك بعينين دامعتين وحيرة كبيرة لما يحدث في هذا العالم من مفارقات وأحداث قد نتدخل في حدوثها أحيانًا، وأحيانًا أخرى تخطها يد القدر فترسم خارطة لطريق لم نفكر في أن نسلكه يومًا.

تدحرجت دمعة ساخنة على خده ببطء لتستقر على شعيرات ذقنه التي لم يحلقها منذ أسابيع خلت.

لكن رجل مثل نبراس وبعد كل ما فعله بإرادته هو.. لم تنزل الدموع من عينيه؟

أولم يبكِ الجلاد بعد انتهائه من تعذيب الضحية؟.

لم تنزل دموع رجل أفسد حياة فتاة أحبته بقلب صادق فهجرها وانتزعها من حياته بكل برود ووحشية؟

ما سر تلك الدموع التي سالت من عينيه؟ هل كانت دموع الندم على فعل قبيح اقترفه بحق فتاة أحبته بكل صدق؟

هل هي دموع الفقد والخسارة لقلب صادق أحبه فأجبرته الحياة على هجره ليبقى حيث يجب أن يكون قريب من العش ليرممه ويحميه من الانهيار؟

هل هي دموع الحزن على حاله وساقه التي قطعت ولن يعود حرًا كما في السابق وسيبقى حبيسًا لكرسيه المدولب؟

هل هي دموع الخزي والعار اللذان شعر بهما بعد أن علم بكل ما فعلته جمانة من أجله على الرغم من قسوته وفعله المشين معها؟

هو وحده فقط من يستطيع الإجابة على كل تلك الأسئلة..

هو فقط من يفهم ما الذي يشعر به الآن.

لا شعور أقسى من الندم..

ولا عار أشد من أن يحسن إليك من أسأت إليه يومًا.

ولا خسارة أكبر من أن نفقد قلبًا أحبنا وحملنا داخله عمرًا بأكمله، فمثل هذا القلب لن يتكرر بين القلوب أبدًا.

إنه كقلب الأمهات.. يغدق الحب دون قيد أو شرط.. دون أن يطلب المقابل..

يحبنا بخيرنا وشرنا.. بسيئاتنا وحسناتنا..

من تهبه الحياة قلبًا كهذا.. فقد وهبته السعادة الأبدية.

خاتمة

أيها الساهر تغفو.. تذكر العهد وتصحو..
فإذا ما التئم جرح..جد في التذكار جرح..
فتعلم كيف تنسى...وتعلم كيف تمحو..

(الأبيات من قصيدة الأطلال للدكتور إبراهيم ناجي كتب تلك القصيدة عن قصة حب واقعية عاشها).

انتهت